
رسائل السلام
(١٠)
سوق الخطايا
رواية تصور دور الذنوب
في محق البركة
د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

تهدف هذه الرواية إلى بيان أثر الاختيار الإنساني للخطيئة فيما يحصل له من مآس وآلام ومصائب.. وهي تعبر عن ذلك بتعبير رمزي عن طريق سوق ممتلئة بكل أنواع الفقر والحاجة، يراها المؤلف ـ تلميذ السلام ـ فتثور في نفسه ألوان الصراع حول سر ذلك، ومدى انسجامه مع الرحمة والعدالة الإلهية..

لكن معلم السلام، وعبر ما يرسله لتلميذه من الوسائط يبرهن له على أن كل ما حصل لأهل السوق من آلام هو ثمرة اختياراتهم.

ثم يأخذ بيده إلى مدرسة تدرب أهل السوق على التخلص من الآثام التي حالت بينهم وبين تنزل البركات عليهم.. وهناك يعرف تلميذ السلام، وأهل السوق، سبب ما حل بهم من محق وآلام.

رسائل السلام

(10)

سوق الخطايا

رواية تصور دور الذنوب
في محق البركة

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تهدف هذه الرواية إلى بيان أثر الاختيار الإنساني للخطيئة فيما يحصل له من مآس وآلام ومصائب.. وهي تعبر عن ذلك بتعبير رمزي عن طريق سوق ممتلئة بكل أنواع الفقر والحاجة، يراها المؤلف ـ تلميذ السلام ـ فتثور في نفسه ألوان الصراع حول سر ذلك، ومدى انسجامه مع الرحمة والعدالة الإلهية..

لكن معلم السلام، وعبر ما يرسله لتلميذه من الوسائط يبرهن له على أن كل ما حصل لأهل السوق من آلام هو ثمرة اختياراتهم.

ثم يأخذ بيده إلى مدرسة تدرب أهل السوق على التخلص من الآثام التي حالت بينهم وبين تنزل البركات عليهم.. وهناك يعرف تلميذ السلام، وأهل السوق، سبب ما حل بهم من محق وآلام.

وفي الرواية استعراض لأمهات الذنوب والخطايا أصولها وفروعها، وبيان أسبابها، وآثارها ودورها في طمس الفطرة الإنسانية.

وفيها استعراض لكم كبير من النصوص المقدسة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، حول أنواع الخطايا والذنوب وعواقبها .. باعتبار تلك النصوص المصدر الأول والأساسي للتعرف على الحقيقة الإنسانية ومنهج تطهيرها، وإعادة صياغتها لتتناسب مع الجبلة التي طبعها الله عليها.

وقد حاولنا في أكثر المحال من هذه الرواية الاكتفاء بإيراد النصوص عن إعطاء توضيحات عليها.. ذلك أن النص المقدس في تصورنا أكبر من أن يفسر أو يوضح أو يقيد بأي قيد.

وقد اكتفينا في محال كثيرة كذلك بذكر الخطايا دون ذكر تفاصيل التخلص منها، لأنا خصصنا لذلك رسائل خاصة من هذه السلسلة، بالإضافة إلى أن غرض هذه الرواية هو بيان آثار الذنوب

على البركـة والـرزق.. وذلـك وحـده كـاف لكثـير من النـاس في التنفير عنها، والتوبة منها.

وقد أشارت النصـوص المقدسـة الكثـيرة إلى الحقيقـة الـتي تهدف إليها هـذه الروايـة، ومنهـا قولـه تعـالى: ﴿وَمَنْ أَعْـرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَـنْكًا وَنَحْشُـرُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ أَعْمَى﴾ [طـه: 124]، فإن هذه الآيـة الكريمـة تشـير إلى دور الإعـراض عن ذكـر الله ـ والذي هو سبب كل الذنوب والمعاصي ــ في تحقـق الضـنك والضيق على المعيشة.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَـانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: 96]

وهكذا أخبر الله تعالى عن نوح عليـه السـلام أنـه في دعوتـه لقومـه ربـط الاسـتغفار بزيـادة الـرزق وتـنزل البركـات: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَـارًا (12) ﴾ [نوح: 10-12]

ومثله هود عليه السلام الذي قـال مخاطبـا لقومـه: ﴿وَيَـاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَـزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52]

ونحب أن نشير هنـا إلى هـذا ليس بعمومـه، فقـد يبتلي اللـه عباده الصالحين بما شاء وكيف شـاء ليطهـرهم ويرفـع درجـاتهم.. وليجعل الأسوة بهم، وقد ورد في الحـديث أنـه قيـل لرسـول اللـه ﷺ: يا رسول الله، أي النـاس أشـد بلاء؟ قـال: (الأنبيـاء ثم الأمثـل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فـإن كـان دينـه صـلبا اشـتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فمـا يـبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)(1)

وقد وضحنا سـنن ذلـك وقوانينـه في كتابنـا [أسـرار الأقـدار] و[ابتسامة الأنين] وغيرهما من هذه السلسلة.

---

1) رواه أحمد والبخاري وابن ماجة والترمذي وابن حبان والحاكم.

البداية

لست أدري هل كان ذلك يقظة أو مناما.. فقـد اختلطت علي في تلك الأيام حياة اليقظة بحيـاة الأحلام.. لكن الـذي أدريـه أنـني بعد أن استيقظت أو عاد إلي وعيي رحت إلى كل نص سـمعته، أو فكرة سجلتها، أبحث عن حقيقتها ومصداقها.. وقـد وجـدتها جميعـا كما رأيتها وسمعتها لم تزد حرفا، ولم تنقص.. ولهـذا رحت أسـجل هذه الأحداث بالدقة التي رأيتهـا فيهـا.. عسـاكم تنتفعـون بهـا كمـا انتفعت.

وبدايـــة حكـــايتي تنطلـــق مـــني، ومن قريـــتي الصـــغيرة المتواضعة .. فقد مررت بسوقها، فرأيت الكثير من المظاهر التي سـببت لي الأسـى والألم.. وجعلتـني أعـاني أنواعـا كثـيرة من الصراع.

وعنـدما سـرت في الطريـق الخـالي، وأنـا عائـد إلى بيـتي صادفت ذلك السوق العجيب الذي بصرني اللـه من خلالـه إلى أن كل ما نعانيه من آلام ومآس سببه ما نقترفـه من الآثـام والـذنوب التي نشعر بها أو لا نشعر.

في بداية دخولي إلى ذلك السوق العجيب أصابني ما أصابني في سـوق قريـتي من الألم.. فقـد كـانت السـوق ممتلئـة شـحا وفقـرا.. وكـانت أرضـها مملـوءة بالأوسـاخ والقـاذورات.. وكـانت سماؤها مملوءة بدخان أسود يحيل حياة أهل السوق إلى جحيم..

عندما شاهدت هذا المشهد المؤلم امتلأت نفسي بـالاعتراض والصراع.. بـل كـدت أصـيح: يـا رب.. أنـزل عليهم من بركاتـك مـا يرفع عنهم هذا الهم الذي يعيشـونه.. وهـذا الفقـر الـذي يعانونـه.. وارفـع عن السـماء سـوادها.. وارفـع عن الأرض مـا حـل بهـا من رجس.. وارفع عن أهل هذا السوق ما نزل بهم من محق..

ما اكتمل هذا الحديث في نفسي حتى ربت رجل ـ يبدو عليـه الغنى ـ على كتفي، وقال: ألا ترى هؤلاء الحمقى والمغفلين؟

قلت: بل الفقراء والمساكين..

قـال: لـو لم يكونـوا حمقى ومغفلين مـا كـانوا فقـراء ولا مساكين..

قلت: أرى أنك امرؤ عديم الرحمة والمروءة.. أهكـذا يتعامـل الأغنيـاء مـع الفقـراء؟.. أبهـذا الازدراء تعـاملهم بـدل أن تعـاملهم بالإحسان، وبما من الله عليك من كرمه؟

قال: لقد جربت ذلك.. فوجدتهم لا يسـتحقون إلا هـذا الجـزاء الذي يعيشونه.. إن هذا الواقع المـؤلم الـذي تـراه ليس إلا جريـرة آثـامهم وصـنعة ذنـوبهم وصـدى مـا في نفوسـهم من ألـوان الإثم والغواية.. ولو أنهم أوقفوا تلـك المحركـات الـتي لا تصـدر إلا الاثم لحسن حالهم، وارتفع المحق عن معاشهم، ولحلت بدله البركات.

توسمت في الرجل، فرأيت فيه ما كنت أرى في أوليـاء اللـه الصالحين الذين تعود معلم السـلام أن يرسـلهم لي، فقلت لـه: لا شك أنك من أصحاب معلم السلام.

قال: ومن أنا حتى أكون صاحبه.. أنا لست سوى تلميذ بسيط من تلاميذه.. أو عبد حقير من عبيده.

قلت: فهـل لـك رسـالة منـه لي، فقـد اشـتقت إلى رسـائله وحديثه؟

قال: أجل .. رسالتي لك هي قصتي مع هذا السوق.. فإن لي حـديثا طـويلا مـع أهلـه.. سـأحدثك عنـه.. فلن يخلص نفسـك من الصراع إلا حديثي عنه.

نظر إلى المكان الذي نقـف فيـه، ثم قـال: أمـا المكـان.. فلا أرى مكانا أصلح لما أريد أن أحدثك عنه من هذه السوق..

قلت: من أنت أولا.. فلا يصح أن أسمع حديثا لا سند له؟

قـال: أنـا من من أهـل كاشـان... سـماني والـدي فيض اللـه

(محسنا)[1].. وقد حبانا الله من فضله الكثير.. وقد بدأت علاقتي بهذه السوق في يوم لا يختلف عن يومنا هذا.. وفي حال لا تختلف عن حالنا هذه..

ذهبت حينها إلى والدي، وأنا أعتصر من الألم لأطلب منه أن يمد السوق بما حباه الله من فضله، فيخرج أهله من فاقتهم وفقرهم وعجزهم..

وقد استجاب والدي لطلبي، ولكنه قال لي: لقد رأيت صورتهم الظاهرة.. فحزنت عليها.. وحاولت أن تغيرها.. فهلا رأيت صورتهم الباطنة.. فعساك تتحرك لإصلاحها.. فإنه لا يصلح ظاهر باطنه خراب..

قلت: ما تقصد؟

قال: هل نميت فيهم من المكارم التي تمسح عنهم المآثم.. فلا يمكن أن تستقر بأحد حال.. وفي صدره وقلبه وحقيقته من الثعابين والحيات ما يظل ينهشه ويقتل فيه الحياة؟

قلت: أنى لي أن أفعل ذلك.. ولكني مع ذلك أستطيع بكل يقين أن أجزم بأن صورتهم الباطنة من أحسن الصور.. ولذلك فلن أخاف من بواطنهم على ظواهرهم.. ولن أخاف على مكارمهم من آثامهم..

بعد أن قلت هذا، قال لي والدي: سنرى.. سأعطيك مبلغا محترما من المال.. وهو كاف لأن يحول سوقهم ـ لو أحسنوا استخدامه ـ إلى سوق صالحة ممتلئة بكل البركات.. بل إن المشارق والمغارب ستفد إليهم طلبا لما عندهم.. ولكن قبل أن تسلمهم المال حذرهم من الآفات والموبقات.. وذكرهم بما ورد

---

[1] () أشير به إلى العلامة محسن بن مرتضى بن فيض الله محمود الكاشي ـ أو الكاشاني أو القاشاني ـ (1008 ؟ـ - 1090 هـ)، وهو من علماء الامامية الكبار.. ويعرف بـ (الفيض)، وعرف جده بفيض الله وبالفيض.. وينعت بالمتأله الحكيم.. قرأ كتب أبي حامد الغزالي وتأثر به وسلك منهجه في كثير من (تصرفاته وتظرفاته) كما يقول صاحب الروضات.. له نحو 80 مصنفا، بعضها في مجلدات.. وأكثرها تعليقات ورسائل.. من كتبه (الصافي في تفسير كلام الله الوافي) و(الاصفى)، و(منهاج النجاة)، و(الحقائق في محاسن الاخلاق).. وقد اخترناه لأجل كتابه هذا.. وهو كتاب من أمهات كتب الأخلاق. ولا يخفى سر اختيارنا له في هذا المحل.

في الحـديث من أن رسـول اللـه جلس على المنـبر وحولـه أصحابه، فقال لهم: (أخوف مـا أخـاف عليكم، مـا يخـرج اللـه لكم من زهرة الدنيا)، قالوا : وما زهرة الـدنيا يـا رسـول اللـه ؟ قـال : (بركات الأرض) قالوا : يا رسول اللـه، وهـل يـأتي الخـير بالشـر؟ قال : (لا يأتي الخـير إلا بـالخير، لا يـأتي الخـير إلا بـالخير، لا يـأتي الخـير إلا بـالخير، إن كـل مـا أنبت الربيـع يقتـل، أو يلم، إلا آكلـة الخضر، فإنها تأكل، حتى إذا امتدث خاصرتاها، استقبلت الشمس، ثم اجترت، وبالت، وثلطت، ثم عادت فأكلت، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونـة هـو، ومن أخذه بغير حقه، كان كالذي يأكل ولا يشبع)[1]

قلت: لا عليك يا والدي.. سأؤدي كل ما تطلبه مني..

قلت هـذا، ثم أسـرعت إلى أهـل السـوق أفـرق عليهم من الأموال مـا عسـاه يحـول حـالهم ويبـدلها ويـنزع عنهم وعنهـا تلـك الكآبة التي تحيط بهم وبها..

وقـد نسـيت في غمـرة ذلـك الكـرم العظيم كرمـا أكـرم وأجدى.. نسيت أن أخبرهم بوصية والدي، وبحديث رسول الله .. وبتلك الحصون القوية التي تحمي نفوسهم من شر الأمـوال الـتي تحملها أيديهم..

نسيت ذلك.. أو تعمدت أن أنساه.. لأني لم أكن أود أن أفسد تلك الفرحة التي ملأت أقطار نفسـي، وهي ترسـل إليهم الأمـوال كـالريح المرسـلة.. ولم أكن أود في نفس الـوقت أن أمثـل دور الواعـظ والمعلم.. فقـد كـان دور الكـريم أرفـع عنـدي من دور الواعظ المعلم..

لكن فرحتي لم تستمر طويلا..

فمـا هي إلا أيـام وأشـهر وسـنوات حـتى عـادت السـوق إلى حالها.. وعاد أهـل السـوق إلى حـالهم.. وكـأن تلـك الأمـوال الـتي امتلأت بها جيوبهم ومخازنهم لم تكن إلا حلما استيقظوا منـه على حياة النكد التي ألفوها وألفتهم..

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

قلت: أهذه هي حكايتك مع أهل هذه السوق.. فلهذا أراك ناقما منهم؟

قال: لا.. حكايتي مع أهل هذه السوق أطول.. وأنا لم آتهم ناقما.. بل أتيتهم لأصلح الخطأ الذي وقعت فيه المرة الماضية.. فما كان لتلاميذ السلام أن يحملوا نقمة.. وما كان لتلاميذ السلام أن يسكتوا عن خطأ.. وما كان لتلاميذ السلام أن يقعدوا عن إصلاح.

قلت: فقد أتيتهم بالمواعظ بدل الأموال؟

قال: تستطيع أن تقول ذلك.. فقد رأيت أن المال لا يحميه شيء كما تحميه المواعظ..

قلت: ولكن المواعظ سرعان ما تحاصرها جنود الغفلة التي يمدها الشيطان بمدده.. فيرتفع عن القلوب تأثيرها، ويرتفع عن النفس أثرها.

قال: ولذلك لم آت بالمواعظ وحدها.. فالمواعظ وسيلة من الوسائل التي يتم بها الإصلاح.. ومن أعظم الأخطاء أن يقتصر العاقل في حربه مع الشيطان والنفس على بعض الوسائل.. فيؤتى من قبل غيرها.

قلت: فبم أتيت إذن؟

قال: لقد بدأت ـ بمعونة والدي ـ بإحصاء العلل والآثام التي حولت السوق إلى هذه الحال.. فلا يمكن أن يداوي الطبيب مريضا لا يعرف مرضه.

قلت: فما العلل التي وجدتها بأهل هذه السوق؟

قال: سبع..

قلت: فقط.. إنهم أصحاء إذن..

قال: كل علة منها كافية لأن تخرب كل حياة.. وتفسد كل صالح.. وتعوج كل مقوم.

قلت: فهلا حدثتني عنها.

قال: سأحدثك أولا عن الدليل الذي دلني عليها.

قلت: لقد ذكرت لي أنه والدك..

قال: والدي أضعف من أن يعرف مثل هذا.

قلت: فمن هو إذن؟

قال: الله..

قلت: الله!؟

قال: أجل.. الله الذي خلق الإنسان، وهو العليم بما خلق.. هو الذي أخبرنا عنها.. إن ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ مثل الصانع الذي يخبرك عن الآفات التي قد تنزل بالجهاز الذي باعه لك.. لتأخذ احتياطاتك نحوها.

وهكذا فإن الله الحكيم أخبرنا أن بالإنسان آثام ظاهرة وباطنة.. وأنه لا يصلح حاله إلا بتركها.. قال تعالى :﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ) (الأنعام:120)

قلت: هذه الآية مجملة.. فكيف كشفت غموضها؟

قال: لقد أخبرنا القرآن الكريم عن العلل التي تنخر حقيقة الإنسان.. وقد ربطها جميعا بالإنسان..

أخبرنا عن كفره ويأسه، فقال :﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ﴾ (هود:9)، وقال :﴿ لا يَسْأَمُ الْأِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ) (فصلت:49)

وأخبرنا عن ظلمه الممزوج بكفره، فقال :﴿ إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (ابراهيم:34)

وأخبرنا عن ظلمه الممزوج بجهله، فقال :﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ

عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (الأحزاب: 72)

وأخبرنا عن خصومته، فقال : خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (النحل:4)

وأخبرنا عن عجلته، فقال : وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً (الاسراء: 11)، وقال: خُلِقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (الانبياء:37)

وأخبرنا عن بخله، فقال : قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْأِنْفَاقِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ قَتُوراً (الاسراء: 100)

وأخبرنا عن جدله، فقال :وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (الكهف: 54)

وأخبرنا عن هلعه، فقال : إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (المعارج:19)

وهكذا.. أخبرنا ربنا عن حقيقتنا وحقيقة الصفات التي تمتلئ بها ذواتنا.

قلت: لقد أثار في كلامك هذا زوابع من الشبهات..

قال: أعلم ذلك.. أنت تتعجب كيف يخلق الله كائنا به كل هذه الشرور والآثام.

قلت: لم تعدو ما في نفسي.. فهل بحثت في جواب ذلك؟

قال: لقد أخبرنا القرآن الكريم بالجواب.. وذلك لم يحتج مني إلا بعض التدبر البسيط.

قلت: أين؟

قال: في قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ

(البقـرة:30).. ففي هـذه الآيـة إخبـار إلهي عن سـر مـا يكتـنزه الإنسان من آثام..

ولهذا عندما ذكر الله للملائكـة الخلافـة ذكـروا الإثم.. وسـفك الدماء؟

قلت: لقد ظللت متعجبا من هذا.. فما علاقة الخلافة بالفساد وسفك الدماء؟

قـال: الخلافـة تقتضـي الحريـة.. والحريـة تقتضـي الاختيـار.. والاختيار يقتضي أن تكـون هنـاك فـرص مختلفـة متعـددة، وسـبل متنوعة.. وكل ذلك يقتضي أن يكون في الإنسان ميل متساو لكـل الطرق ولكل الاتجاهات حتى يحدد بعد ذلك الخيـار الـذي يتناسـب معه ومع طبيعته وعزيمته وإرادته.

لقد ذكر الله ذلك فقال عند حديثـه عن الإنسـان : إِنَّا خَلَقْنَـا الْإِنْسَـانَ مِنْ نُطْفَـةٍ أَمْشَـاجٍ نَبْتَلِيـهِ فَجَعَلْنَـاهُ سَـمِيعًا بَصِـيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) (الإنسان)

انظر كيف ربط الله تعالى بين السـمع والبصـر وبين الهدايـة والضلال.. فكما أن السمع والبصـر يتيحـان لنـا أن نسـتعملهما في الخير والشر.. فهكذا باقي القوى واللطائف..

قلت: ألهذا نفخ في الإنسان كل تلك الآثام؟

قال: نحن نعبر عنها بالآثام باعتبار اختيار الإنسان.. لا باعتبـار حقيقة الحال.. فالله الحكيم الرحيم لا يخلق الشر المجرد عن كل خير[1].. بل هو يخلق الخير.. ومن الخير ما يتحول إلى شـر.. كمـا أن من الطعام ما يتسنه ويصبح غير صالح للأكل.. مع أنه في أصل طبيعته طيب وصالح.

قلت: فهمت تسنه الطعام.. ولم أفهم تسنه الإنسان.

قال: أليس الطعام يتسنه بالغفلة عنه؟

قلت: تستطيع أن تقول ذلك.. فعندما نغفل عن الطعام مـدة

1() ذكرنا هذه المسألة بتفصيل في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (رسائل السلام)

من الزمان نكتشف أنه قد تسنه وتغير.

قال: فكذلك الإنسان.. كلما غفل عن النظر في حقيقته وتقويمها وربطها بمصدرها الأعلى كلما تمكنت الآفات منه، وانحرفت به بعد ذلك.. لقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19)﴾ (الحشر)

قلت: ولكن الآية تتحدث عن نسيان الله والغفلة عنه.. لا عن الإنسان لنفسه.

قال: لا يمكن لإنسان أن يذكر نفسه أو يعرفها.. وهو لا يذكر ربه ولا يعرفه.. إن حقيقة الإنسان لا يمكن أن تتجلى للإنسان إلا عندما يتصل بربه.

قلت: أكاد أفهم ما تقول.. لكني أتعجب كيف يخلق الله نفسا شحيحة.. أتعجب لقوله تعالى :﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ (النساء:128).. وغيرها من الآيات التي تذكر الخراب الذي يملأ أعماق الإنسان.

قال: هو ليس خرابا بالصورة التي تتصورها..

قلت: فما هو إذن؟

قال: تستطيع أن تقول: إنه لبنات.. ومواد خام.. نعم هي مفرقة في أرض النفس بحيث يهيأ لمن يراها بأنه يرى خرابا.. ولكنها في الحقيقة إن وجدت أيد ماهرة ومهندسين خبراء.. فستتحول تلك اللبنات إلى عمران ليس مثله عمران.

قلت: هل لي بمثال يوضح لي هذا؟

قال: أنت تعجبت من أن تفطر النفس على الشح؟

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. والكل يتعجب من ذلك.

قال: هل ترى أن حياة الإنسان يمكن أن تستمر.. ولحضارته يمكن أن تقوم.. ولوظيفة الخلافة فيه يمكن أن تؤدى من غير أن

تكون فيه هذه الخصلة؟

قلت: لو خلت حياة الإنسان من الشح.. وخلت حضـارته منـه لعاش الإنسان إنسانا.

قال: ذلك هو الشح المنحرف.. السلبي.. أما الشح الفطري.. والذي هـو لبنـة من لبنـات الإنسـان.. فـإن نزعـه من الإنسـان لن يبقيه إنسانا..

نظر إلي، فوجدني لا أزال على هيئتي لم أقتنع، فقـال: أليس الشح هو الحرص على ما تملكه من أشياء؟

قلت: بلى.. فالشحيح هو الذي يبخل بماله.

قال: البخل بالمال فرع من فروع الشح.. الشح أخطر من أن ينحصر في المال..

قلت: صحيح ما تقول..

قـال: نحن نـرى الشـح السـلبي.. وهـو شـح يوظـف لبنـات الإنسان لتخدم المصالح الخاصة ولو على حساب المصالح العامة.

قلت: فهل هناك شح إيجابي؟

قال: أجل.. وهو شح يوظف لبنـات الإنسـان وطاقاتـه لتخـدم المصالح الخاصة.. وفي نفس الوقت لا تضر بالمصالح العامة.. بل إنه يخدم المصالح العامة.. فلا يمكن للمصالح العامـة أن تقـوم إلا بالمصالح الخاصة.

قلت: لم أفهم.

قال: أرأيت لو أن كل الناس حرصوا على ما عندهم من مال وصحة وعافية.. وشحوا بها.. فلم يدعوها للآفـات.. أليس في ذلـك اجتماع للمصالح الخاصة والعامة؟

قلت: بلى.. سـيكون المجتمـع حينهـا مجتمعـا قويـا صـحيحا سليما من الآفات..

قال: ولهذا قال رسول الله ﷺ.. وهو يحض على هذا الشح الإيجابي.. لبعض صحابته : (الثلث والثلث كبير، أو كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة، تبتغى بها وجه الله، إلا أجرت بها، حتى ما تجعل فى فى امرأتك)(1)

قلت: وعيت هذا في الشح.. لكن هناك آثاما أخرى قد لا ينطبق عليها ما تقول.

قال: كلها ينطبق عليها ما أقول..

قلت: الجدل مثلا.. لا ينطبق عليه ما تقول.

قال: لولا الجدل ما قامت للأفكار سوق..

قلت: والكفر!؟

قال: لولا الكفر ما عرفنا قيمة اختيار المؤمن للإيمان..

قلت: والظلم!؟

قال: الظالم هو الذي انحرف بموازين العدالة في نفسه عن وجهتها..

قلت: فالموازين صحيحة.. لكنه هو الذي انحرف بها؟

قال: أجل.. وهكذا في كل الأمور.. إن مثل ذلك مثل الملح يكون في الطعام.. فمن وضعه بقدر انتفع به وانتفع بطعامه.. ومن وضع بغير قدر استضر به واستضر بطعامه.

قلت: لقد وعيت الآن.. فبورك فيك.. ولكني لن أتركك حتى تحدثني عن هذه الآثام السبعة.. عن حقيقتها.. وعن علاقتها بهذه السوق.. وعن الترياق الذي قدمت به لعلاجها.

قال: ما جئت اليوم لهذه السوق إلا لأجل هذا.. لقد وفقني الله، فأسست مدرسة تطهيرية في مدخل هذه السوق، وقد جئت

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

لها بالعلماء من كل حدب وصوب.. وجعلتها أقساما بحسب الآثام التي التي يمكن أن يقع فيها الإنسان.

قلت: فمن تريد أن يتتلمذ فيها؟

قال: أهل هذه السوق.. أهل هذه السوق هم تلاميذ تلك المدرسة؟

ابتسمت، وقلت: هل تريد من هؤلاء أن يتركوا معايشهم وأرزاقهم وقوت أولادهم ليتتلمذوا في مدرستك.. لا شك أنهم لن يقبلوا.

قال: سأستغل آثامهم للوصول إلى طهارتهم.

قلت: عجبا.. ما تقول؟

قال: ألم أذكر لك شح الإنسان وحرصه وأنانيته؟

قلت: بلى..

قال: فسأطرق أبوابهم من هذه النواحي.

قلت: كيف؟

قال: اصبر.. ولا تستعجل.. وسترى الكيف.

***

قال ذلك، ثم طلب من بعض من كان معه بأن يباشر المهمة التي كلفه بها.

قام ذلك الرجل، وراح ينادي في أهل السوق: يا أهل السوق.. إن محسن بن فيض الله يريد أن يحدثكم.

رنت جميع الوجوه إليه.. ثم سرعان ما اجتمعوا حولنا..

بعد أن اجتمعوا قام محسن بن فيض الله، وقال: لاشك أنكم تعرفونني.. فلذلك لا أحتاج أن أعرفكم بنفسي.

قال واحد منهم: أجل.. لقد سبق لك أن قدمت في يوم من

الأيام بعض الإحسان.. ولكنك سرعان ما غفلت عنا.. وأنستك الشياطين أن تذكرنا.

قال آخر: هات ما جئت من أجله.. فأرزاق أولادنا تنتظرنا.

قال آخر: إن كنت جئت بالمال، فأسرع به.. أما إن جئتنا بالكلام، فاتركه لنفسك، فلا يمكننا أن نطعم أولادنا كلاما.

تكلم أكثر من كان حاضرا، وكان كلاما وقحا أكد لي ما ذكره محسن بن فيض الله.

بعد أن انتهوا من كلماتهم الممتلئة بالبذاءة والوقاحة، قال محسن: تريثوا يا أهل هذه السوق الكرام.. نعم أنا أتيتكم بالكلام.. ولكنه ليس كلاما مجردا.. إنه كلام..

قاطعه بعضهم، وقال: الكلام هو الكلام.. ولا شيء غير الكلام.. هيا بنا ننفض عنه.. لقد كنت أعلم أني أضيع وقتي بالجلوس إليه..

ردد آخر نفس ما ردده الأول، فارتفع الضجيج..

لكن محسنا كان في غاية الذكاء، فقد أمر من معه بأن يسمعوا الحاضرين رنين الدراهم والدنانير.. فما إن سمعوها حتى امتلأت السوق بصمت عميق قطعه محسن بقوله: لقد جئتكم بهذه أيضا..

سال لعاب الحاضرين، وامتلأوا بخشوع عظيم.. ثم قال بعضهم: هاتها.. فطالما رأيناك محسنا.

قال آخر: بل أنت الإحسان عينه.

قال آخر: لو أن الدنيا كلها كانت في كفك لجدت بها.

قال آخر: لا أظن من قال هذه الأبيات إلا يقصدك..

ثم راح ينشد:

تراه إذا ما جئتَه   كأنَّك تعطيه الذي

متهلَــلاً أنت نائلَهْ
ولو لم يكن في كفّه غيرُ رُوحه لجاد بها فليتَّقِ اللهَ سائلــــــــه

قال آخر: ومثله من قال:

أقول لمرتاد الندى عند مالك تمسك بجدوى مالك وصلاته
فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه فأسدى بها المعروف قبل عداته
فلو خذلت أمواله جود كفه لقاسم من يرجوه شطر حياته
وإن لم يجز في العمر قسم لمالك وجاز له أعطاه من حسناته
وجاد بها من غير كفر بربــــــه وأشركه في صومه وصلاتــــه

قاطعهم محسن بقوله: مهلا.. فهذه المرة لن أعطيكم المـال دون أن آخذ شيئا..

قال واحد منا: خذ منا كل شيء.. أعطنا المال فقط..

قـال محسـن: لن آخـذ منكم إلا بعض أوقـاتكم.. وسـأعطيكم بدلها من المال ما يكفيكم.. ولكن من نجح منكم فيما أطلبه منــه، فسأعطيه من فضل الله الذي من به علينـا مـا يجعلـه أغـنى أهـل هذه السوق.

قالوا: لم نفهم ما تريده منا.

قال: لقد أنشأت مدرسة تربوية في مدخل هذه السوق، وقـد ملأتها بالعلماء والمربين والمدربين.. وجعلت لكل من يـدخل لتلـك المدرسـة مرتبـا يكفيـه لمعاشـه.. ولكنـه إن اسـتطاع أن يهضـم دروسـها، ويتـدرب عليهـا، فسـأعطيه من المـال مـا يسـتطيع أن يتحول به إلى غني من أغنياء هذه المدينة.. فهل تراكم تقبلون؟

صاحوا جميعا بصوت واحد: أجل.. ومن لا يقبل.

قال واحد منهم: نعرف المراد من هضم الـدروس.. ولكن مـا تريد بالتدرب عليها؟

قال محسن: أنتم تدرسون في هـذه المدرسـة في الصـباح.. وبالتحديـد تبـدأ دراسـتكم من طلـوع الفجـر.. وبعـد أن تنتهـوا من دروسكم تعودون إلى سوقكم لتطبقوا كل ما درستموه.

قال الرجل: ولكن كيف تميز المتفوق منا من غير المتفوق؟

قـال محسـن: مـا أيسـر ذلـك.. سأرسـل مراقـبين يطوفـون عليكم كـل حين.. وسـيروا مـدى تفـاعلكم مـع الـدروس الـتي درسـتموها.. وقـد ذكـرت لكم أن من نجح في التـدرب عليهـا سأعطيه من المال ما يملك به هذه السوق جميعا.

سال لعابهم جميعا.. وقالوا: فمتى نبدأ دراستنا؟

قال محسن: من فجر يـوم الغـد.. وكـل من تغيب، فسـيعتبر بالنسبة لي غير موافق على العرض الذي قدمته.

قال رجل منهم: أحمق من غاب عن مثل هذا العرض.

قال آخر: أما أنا، فلن أنام الليل جميعا.

قال آخر: أما أنا، فسأذهب إلى بـاب المدرسـة، لأبيت هنـاك، فلا أحب أن يسبقني إليه أحد..

وهكـذا ردد الجميـع مـا ردده هـؤلاء.. ثم انصـرفوا، والفرحـة بادية على وجوههم التي كانت ممتلئة كآبة ويأسا.

أولا ـ الجحود

انصـرفت إلى بيـتي.. وفي فجـر اليـوم التـالي سـرت إلى المدرسة، ففوجئت بالأعداد الهائلة من الناس من مختلف الأعمـار تنتظر عند بابها..

فتح عليهم محسن الباب، وقال: لدينا سبعة أقسـام في هـذه المدرسة.. لكل قسم منها دروسه الخاصة به.. ولكـل قسـم منهـا أستاذه الخبير الذي كلف به.

قالوا: فما هو القسم الأول؟

قـال: هـو قسـم (الجحـود).. وأسـتاذكم فيـه هـو (أبـو بكـر الخرائطي)[1].. وهو رجل قدير خبير بالنفس وأسرارها.. وقد ألف كتبـا في التربيـة والأخلاق، منهـا كتـاب سـماه (مكـارم الأخلاق ومعاليها)، ومنها (مساوىء الأخلاق ومذمومها وطرائق مكروهها).. فاجلسوا إليـه، وسـلوه مـا بـدا لكم.. وبعـدها عـودوا إلى سـوقكم لتطبقوا ما درستموه.

ذهبنا إلى الخرائطي في القسـم الخـاص بـه.. وقـد اسـتقبلنا بكل أدب.. ثم طلب منا أن نجلس..

فجلسنا، وقد بدأ حديثه بعد حمد اللـه والصـلاة والسـلام على نبيـه ﷺ وآلـه بقولـه: لنبـدأ دروسـنا بـالإثم الأول.. إنـه الإثم الـذي تأسست منه الآثام، وتفرعت عنه الذنوب.. إنه الجحود.. فمن امتلأ قلبه بجحود مولاه لم ينل في حياته خيرا ولا بركة ولا فضلا.

لقد أشار القرآن الكريم إلى ارتبـاط هـذا الإثم بالإنسـان في مواضع كثيرة من القـرآن الكـريم، وكأنـه ينبهنـا إلى هـذا الـوحش الخطير الذي يريد أن ينحـرف بحياتنـا عن المنهج الـذي أراده اللـه لنا..

سـأقرأ عليكم مـا ورد في القـرآن الكـريم من ذلـك لتتعـرف

---

[1] () أبو بكر الخرائطي السامري (240 - 327 ه) من حفاظ الحديث، من أهل السامرة بفلسطين، ووفاته في مدينة يافا.

على الأتون الآثم الذي يحترق به الإنسـان من حيث يشـعر، أو من حيث لا يشعر..

لقد ذكر الله تعالى سرعة ميل الإنسـان إلى الكفـر والجحـود والغفلـة بمجـرد أن يفـرج اللـه عنـه، فقـال : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَـانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَـرَّ كَـأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (يونس:12).. وقال : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِـيَ مَـا كَـانَ يَـدْعُو إِلَيْـهِ مِنْ قَبْـلُ وَجَعَـلَ لِلَّهِ أَنْـدَاداً لِيُضِـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ قُـلْ تَمَتَّعْ بِكُفْـرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْـحَابِ النَّارِ (الزمـر:8).. وقـال: فَـإِذَا مَسَّ الْأِنْسَـانَ ضُـرٌّ دَعَانَـا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـاهُ نِعْمَـةً مِنَّا قَـالَ إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ بَـلْ هِيَ فِتْنَـةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَــرَهُمْ لا يَعْلَمُــونَ (الزمــر:49).. وقــال : وَإِذَا أَنْعَمْنَــا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّـهُ الشَّـرُّ فَـذُو دُعَـاءٍ عَـرِيضٍ (فصـلت:51).. وقـال : وَإِذَا مَسَّـكُمُ الضُّـرُّ فِي الْبَحْـرِ ضَـلَّ مَنْ تَــدْعُونَ إلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَــرِّ أَعْرَضْــتُمْ وَكَــانَ الْأِنْسَــانُ كَفُوراً (الاسراء:67)

انظروا الصورة التي يمثلها الإنسان بهذا الجحود.. إن أوهامـه تصور له أنه يمثل على الله ويخادع الله ويحتال عليه.

وهكذا ذكـر القـرآن الكـريم يـأس الإنسـان وكفـره في حـال الضرر، فقال : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَـا مِنْـهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ (هود:9).. وقال : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً (الاسراء: 83).. وقال : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إلا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْأِنْسَـانَ مِنَّا رَحْمَـةً فَـرِحَ بِهَـا وَإِنْ تُصِـبْهُمْ سَـيِّئَةٌ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْأِنْسَانَ كَفُورٌ (الشورى:48)

وهكذا ذكر جحود الإنسان وغفلته عن فضل ربه عليه، فقال ـ وهو يستعرض نعم الله على عباده ـ : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِـهِ مِنَ الثَّمَـرَاتِ رِزْقًـا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَـارَ (33)

وَآتَاكُمْ مِنْ كُـلِّ مَـا سَـأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُـوهَا إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَظَلُـومٌ كَفَّارٌ(34) (إبـراهيم).. وقـال : أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْـرِي فِي الْبَحْـرِ بِـأَمْرِهِ وَيُمْسِـكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إلا بِإِذْنِـهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَـرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَكَفُـورٌ (66) (الحج)

ولهذا كله، فإن اللـه يصـف الإنسـان بـالكفر الشـديد المـبين الذي لا فوقه كفر ولا مثله جحود، قال تعالى : قُتِـلَ الْأِنْسَـانُ مَـا أَكْفَرَهُ (عبس:17)

قـال رجـل من الحاضـرين: عرفنـا مـا ورد في القـرآن من الحديث عن كفر الإنسان وجحوده.. ولكن كيف عرفت أن هذا هـو مبدأ الآثام وأصلها الذي تتفرع منه ؟

قال الخـرائطي: لقـد عـرفت ذلـك من مصـادر كثـيرة.. لعـل أهمهـا تجربـتي الشخصـية.. لقـد من اللــه علي فـأكرمت بعض المحتاجين في بعض الأسواق بما رفع فقره وفاقته.. وقد كان أول ما واجهني به بعـد أن من اللـه عليـه من خـيره مـا من.. وبعـد أن ارتفعت عنـه قيـود الفقـر.. وحلت عليـه تباشـير الغـنى أن قابـل إحساني بالإساءة.. بل فعل ما هـو فـوق ذلـك ممـا لا يخطـر على بال..

قلنا: ما فعل؟

قال الخرائطي: لقد تصـور أن غنـاي منـافس لغنـاه.. فلـذلك راح يستعمل كل الوسائل ليحطمني لتصوره أنـه لا يمكن أن يبـنى بنيانه مع بنياني..

لم أتعجب من سلوكه هذا.. فقد كان لي من الإيمـان العظيم ما جعلني أدرك أن النعمة سرعان ما تغادر من جحدها.

قلنا: فكيف أيقنت بهذا؟

قال: لقد أخبرنا رسول الله أن ثلاثة نفر في بـني إسـرائيل أبرص، وأقـرع، وأعمى، أراد للـه عزوجـل أن يبتليهم، فبعث ملكـا

فأتى الابرص، فقال : أي شيء أحب اليك؟ قال : لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب، وأعطي لونا حسنا وجلد حسنا، فقال : أي المال أحب اليك ؟ قال : الابل، فأعطي ناقة عشراء، فقال : يبارك لك فيها.

وأتى الاقرع، فقال : أي شيء أحب اليك ؟ قال شعر حسن، ويذهب هذا عني، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا، فقال : فأي المال أحب اليك ؟ قال : البقر، فأعطاه بقرة حاملا، وقال : يبارك لك فيها.

وأتى الاعمى، فقال : أي شيء أحب اليك ؟ قال، يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، فقال : فأي المال أحب اليك ؟ قال : الغنم فاعطاه شاة والدا.

فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا واد من الابل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من غنم، ثم إنه أتي الابرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين، تقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري، فقال له : إن الحقوق كثيرة، فقال له : كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا، فأعطاك الله، فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الاقرع في صورته وهيئته، فقال له : مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال له : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الاعمى في صورته، فقال رجل مسكين، وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال : قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا، فخذ ما شئت، فو الله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله فقال : (أمسك مالك فانما ابتليتم فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك)[1]

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

بل أخبرنا قبـل ذلـك القـرآن الكـريم.. ففيـه الآيـات الكثـيرة الدالة على عواقب جحود النعمة..

اسمعوا لهذه الآيات وهي تتحدث عن قوم مثلنا أصـابهم اللـه بعذابه، بعد أن جحدوا الله وجحـدوا آياتـه، قـال تعـالى مخـبرا عن قوم عاد: ﴿ وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْـرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)﴾ (هود)

وما حصل لعاد بسبب جحودهم هو مـا حصـل لغـيرهم، قـال تعالى يذكر ذلك، ويذكر به :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُـلْ أَنْـذَرْتُكُمْ صـاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عـادٍ وَثَمُـودَ (13) إِذْ جـاءَتْهُمُ الرُّسُـلُ مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنـا لَأَنْـزَلَ مَلائِكَـةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14) فَأَمَّا عادٌ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُـوَّةً أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنـا يَجْحَـدُونَ (15) فَأَرْسَـلْنا عَلَيْهِمْ رِيحـاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِـزْيِ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْـزى وَهُمْ لا يُنْصَـرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُـودُ فَهَـدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَـذابِ الْهُـونِ بِمـا كانُوا يَكْسِبُونَ (17)﴾ (فصلت)

وقال :﴿ وَاذْكُرْ أَخـا عـادٍ إِذْ أَنْـذَرَ قَوْمَـهُ بِالْأَحْقـافِ وَقَـدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخـافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قـالَ إِنَّمَـا الْعِلْمُ عِنْـدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مـا أُرْسِـلْتُ بِـهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْمـاً تَجْهَلُـونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضـاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِـهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُـلَّ شَـيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهـا فَأَصْـبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَـمْعاً وَأَبْصـاراً وَأَفْئِدَةً فَمـا أَغْـنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26)﴾ (الأحقاف)

وقـال :﴿ لَقَـدْ كَـانَ لِسَـبَإٍ فِي مَسْـكَنِهِمْ آيَـةٌ جَنَّتَـانِ عَنْ يَمِينٍ

وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)﴾ (سبأ)

الإعراض:

قال رجل منا: لقد اعتبرت هذه الآيات **الإعراض** هو سر ما حصل لسبأ من المهالك.

قال الخرائطي: أجل.. فالإعراض هو الصورة البشعة التي ينم بها الجحود عن نفسه.

قال الرجل: فما صور الإعراض التي يظهر بها؟

قال الخرائطي: كثيرة جدا.. وقد أشار القرآن إلى مجامعها[1]..

فمن ذلك الإعراض عن الطّاعات والسّهو عنها، كما قال تعالى :﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ.. (16)﴾ (سبأ)

ومنها الإعراض عن سماع المواعظ والتأثر بها، كما قال تعالى :﴿ فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (94)﴾ (المدثر)

---

[1] ذكر القرآن الكريم في المقابل صورا محمودة للإعراض: منها الإعراض عن المشركين والجاهلين، قال تعالى :﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)﴾ (الأنعام)، وقال :﴿ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً (42)﴾ (المائدة)، وقال :﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ (63)﴾ (النساء)، وقال :﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (199)﴾ (الأعراف)

ومنها الإعراض عن اللّغو: قال تعالى :﴿ وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ (55)﴾ (القصص)

ومنها الإعراض عن تذكر حساب الله لعباده، كما قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1)﴾ (الأنبياء)

ومنها الإعراض عن ذكـر اللّـه، ليمتلئ الإنسـان بدلـه بالغفلـة التي تؤهله لكل أنواع العذاب، كما قال تعالى :﴿ وَمَنْ أَعْـرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً (124)﴾ (طه)

ومنها الإعراض عن النظر إلى آيات اللّه في الكون وتبصرها، كما قال تعالى :﴿ وَكَـأَيِّنْ مِنْ آيَـةٍ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (105)﴾ (يوسف)

ومنها الإعراض عن الحقّ وعدم الإذعان له، كما قال تعـالى : ﴿.. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)﴾ (الأنبياء)

ومنها الإعراض عن النّبـإ العظيم قـال تعـالى :﴿ قُـلْ هُـوَ نَبَـأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ(68)﴾ (ص)

ومنها الإعراض عن الوفاء بعهود الله التي أخذها على عبـاده، قـال تعـالى :﴿ وَإِذْ أَخَـذْنا مِيثـاقَ بَنِي إِسْـرائِيلَ لا تَعْبُـدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّـلاةَ وَآتُـوا الزَّكـاةَ ثُمَّ تَـوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هـؤُلاءِ تَقْتُلُـونَ أَنْفُسَـكُمْ وَتُخْرِجُـونَ فَرِيقـاً مِنْكُمْ مِنْ دِيـارِهِمْ تَظـاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُـدْوانِ وَإِنْ يَـأْتُوكُمْ أُسـارى تُفـادُوهُمْ وَهُـوَ مُحَـرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَـذابِ وَمَـا اللَّهُ بِغافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُـونَ (85) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الْحَيــاةَ الــدُّنْيا بِــالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَــذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)﴾ (البقرة)

قال الرجل: عرفنا صور الإعراض، فما عقوبته؟

قـال الخـرائطي: لقـد ذكرتهـا النصـوص المقدسـة.. وأولهـا وأخطرها عدم مبـالاة اللـه تعـالى بمن أعـرض عنـه، فاللـه الغـني

الكريم لا يضره جحود الجاحدين كما لا تنفعه طاعة الطائعين، قال تعالى : وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35) (الأنعام)، وقال: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (25) (الأنفال)

وفي الحديث أنه بينما كان رسول اللّه جالسا في المسجد والنّاس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول اللّه ، وذهب واحد، فوقفا على رسول اللّه ، فأمّا أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأمّا الآخر فجلس خلفهم، وأمّا الثّالث فأدبر ذاهبا.. فلمّا فرغ رسول اللّه ، قال: (ألا أخبركم عن النّفر الثّلاثة؟ أمّا أحدهم فأوى إلى اللّه فآواه اللّه، وأمّا الآخر فاستحيا فاستحيا اللّه منه، وأمّا الآخر فأعرض فأعرض اللّه عنه)[1]

الضلال:

قال رجل من الحاضرين: فكيف يهتدي من أعرض الله عنه؟.. إنه لا شك سيقع في هاوية الضلال.

قال الخرائطي: أجل.. فمن لم يتنعم باسم الله الهادي، وقع تحت اسم الله المضل.. ولله من أبواب الإضلال ما يعدل أبواب هدايته.

قال الرجل: ولكن كيف يفتح الله أبوابا للإضلال؟

قال الخرائطي: إن الله تعالى خلق الجنة، وجعل لها صفات من توفرت فيه استحق دخولها، ومن لم تتوفر فيه دخل النار.. وهكذا، فالهداية الغالية التي هي مفتاح الجنة لها صفات من ظفر بها حلت عليه، ومن لم يظفر بها وقع في أسر الإضلال الذي هو

(1) رواه البخاري ومسلم.

مفتاح لجميع أبواب جهنم.

قال الرجل: ولكن القرآن الكريم ذكر أن الإضلال يقع من الشيطان للإنسان، أو من الإنسان للإنسان، فهو يقول:﴿ قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (60)﴾ (المائدة)، وفيه:﴿ قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (77)﴾ (المائدة)، وفيه:﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا (29)﴾ (الفرقان)

قال الخرائطي: إن الرزق الذي يأتيك من الإنسان لا يعني أن الإنسان هو الرزاق.. والشفاء الذي يأتيك على يد الإنسان لا يعني أنه الطبيب..

قال الرجل: ما تعني بذلك؟

قال الخرائطي: لله تعالى من سلاسل الأسباب التي تقتضيها الحكمة ما ينحجب به الغافلون، ويعرف به العارفون.

قال الرجل: فهل في القرآن ما يدل على أن الله هو الذي عاقب الجاحدين بالإضلال؟

قال الخرائطي: أجل.. فقد أخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام، فقال:﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: 88)

فهذا دعاء من موسى عليه السلام على فرعون وملئه بعد أن استنفذ كل الوسائل لدعوتهم، وهو يشبه دعاء نوح عليه السلام على قومه بعد

ذلك الجهد العظيم الذي بذله، كما قال تعالى على لسانه: وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً (نوح:24)، وقال تعالى: وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً (نوح:28)

وأخبر الله تعالى عن المنافقين ومواقفهم من القرآن الكريم، فقال : وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (التوبة:127)

فهؤلاء المنافقون لانصرافهم عن القرآن الكريم ونفورهم منه عاملهم الله تعالى على مقتضى طبيعتهم، فصرف قلوبهم عن الحق، لأن التكليف يتطلب الطواعية والاختيار، فلذلك من رغب عن الحق رغب الحق عنه، ومثل ذلك قوله تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف:5)

الكذب:

قال رجل من الحاضرين: وعينا أن الجحود يؤدي إلى الإعراض، والإعراض يؤدي إلى الضلال.. فإلى ما يؤدي الضلال؟

قال الخرائطي: يؤدي إلى الكذب والتكذيب.. فمن ضل عن الحق لا شك أنه سيكذب به.. ومن كذب بالحق لاشك أنه سيكذب عليه.

لقد ذكر الله تعالى أن من صفات الضالين التكذيب بآيات الله، فقال: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39) (البقرة)

قال الرجل: فما عاقبة الكذابين المكذبين؟

قال الخرائطي: لقد ذكرها الله تعالى، فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (11) (آل عمران)، وقال: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) (آل عمران)، وقال: وَعَدَ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (10) (المائدة)، وقال: وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5) (الأنعام)، وقال: وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (49) (الأنعام)

وفي الحديث قال رسول الله : (عليكم بالصّدق، فإنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وما يزال الرّجل يصدق ويتحرّى الصّدق حتّى يكتب عند اللّه صدّيقا. وإيّاكم والكذب، فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار، وما يزال الرّجل يكذب ويتحرّى الكذب حتّى يكتب عند اللّه كذّابا)[1]

وقال: (ثلاثة لا يكلّمهم اللّه يوم القيامة ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذّاب، وعائل مستكبر)[2]

وقال: (لا تكذبوا عليّ؛ فإنّه من كذب عليّ فليلج النّار)[3]

وقال:(من تحلّم[4] بحلم لم يره كلّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرّون منه صبّ في أذنه الآنك[5] يوم القيامة، ومن صوّر صورة عذّب وكلّف أن ينفخ فيها وليس بنافخ)[6]

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه البخاري ومسلم.

[4] من تحلم: تكلف الحلم.

[5] الآنك: الرصاص المذاب.

[6] رواه البخاري.

قال الرجل: ولكنا قد نضطر أحيانا إلى الكذب؟

قال الخرائطي: إن كان من باب قوله : (ليس الكذّاب الّذي يصلح بين النّاس فينمي[1] خيرا أو يقول خيرا)[2] فنعم.. وإن كان من باب قوله (أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) [3] فلا.

قال الرجل: ما تعني؟

قال الخرائطي: لقد ذكر العلماء أن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكلّ مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يكن تحصيله إلّا بالكذب، ثمّ إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحا كان الكذب مباحا، وإن كان واجبا كان الكذب واجبا.. فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، أو أخذ ماله، وأخفى ماله، وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه[4].

قال الرجل: وعيت هذا.. فما علاج الكذب؟

قال الخرائطي: لا يمكن معرفة العلاج قبل معرفة الدواعي والأسباب.

قال الرجل: فما دواعي الكذب، وما أسبابه؟

قال الخرائطي[5]: منها الكذب لاجتلاب النّفع واستدفاع الضّرّ، فيرى الكذّاب أنّ الكذب أسلم وأغنم، فيرخّص لنفسه فيه اغترارا بالخدع، واستشفافا للطّمع.

ومنها أنه يؤثر أن يكون حديثه مستعذبا، وكلامه مستظرفا،

1() فينمي: أي يبلغ على وجه الاصلاح وطلب الخير.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رياض الصالحين: 459.

5() أدب الدنيا والدين: 256.

فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف، فيستحلي الكذب الّذي ليست غرائزه معوزة، ولا طرائفه معجزة.

ومنها أن يقصد بالكذب التّشفّي من عدوّه فيسمه بقبائح يخترعها عليه، ويصفه بفضائح ينسبها إليه.

ومنها أن تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتّى ألفها، فصار الكذب له عادة، ونفسه إليه منقادة.

ومنها حبّ التّرأّس، وذلك أنّ الكاذب يرى له فضلا على المخبر بما أعلمه، فهو يتشبّه بالعالم الفاضل في ذلك.

قال الرجل: عرفنا الدواعي، فما العلاج؟

قال الخرائطي: علاج الداء بمقاومته.. وعلاج الدواعي بالتخلي عنها.

الخداع:

قال رجل من الحاضرين: فما الهاوية التي يؤدي إليها الكذب؟

قال الخرائطي: أخطر هاوية يؤدي إليها الكذب هي الخداع.. فالكاذب يتصور أن له القدرة على قلب الحقائق.. ولذلك ذكر الله تعالى عن المنافقين توهمهم - لفرط كذبهم على الله - أنهم يخادعونه، قال تعالى : ﴿ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (9)﴾ (البقرة)، وقال:﴿ إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142)﴾ (النساء)، وقال : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62)﴾ (الأنفال)

في الحديث قال رسول الله ﷺ: (المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم)[1]

---

[1] رواه أبو داود والترمذي والحاكم.

قال الرجل: فما صور الخداع؟

قال الخرائطي: كثيرة.. لا يمكن حصرها، فهي تشمل جميع مناحي الحياة..

قال الرجل: لا مناص لك من ذكر بعضها لنا، لنستدل بما ذكرت على ما لم تذكر.

قال الخرائطي: لقد ذكر رسول الله بعض صور الخداع، فقال: (لا يتلقّى الرّكبان لبيع(1)، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ولا تناجشوا(2)، ولا يبع حاضر لباد، ولا تصرّوا الإبل والغنم(3).. فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النّظرين، بعد أن يحلبها فإن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردّها، وصاعا من تمر)(4)

وقال: (ثلاثة لا يكلّمهم اللّه يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السّبيل. ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له باللّه لأخذها بكذا وكذا فصدّقه، وهو على غير ذلك، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلّا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف)(5)

الغش:

قال رجل من الحاضرين:وعينا هذا.. فهل هناك هاوية غيرها؟

قال الخرائطي: أجل.. هناك هاوية الغش.. لقد ذكر الله الغاشين، فقال: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ

1() لا يتلقّى الركبان لبيع: هو أن يتلقى الحضري البدوي قبل وصوله إلى البلد. ويخبره ما معه كذبا ليشتري منه سلعته بالوكس وأقل من ثمن المثل.

2() التناجش: الاستثارة أي يثير رغبة الناس فيها ويرفع ثمنها.

3() لا تصروا الإبل والغنم: من التصرية وهي الجمع أي لا تجمعوا اللبن في ضرعها عند إرادة بيعها حتى يعظم ضرعها فيظن المشتري أن كثرة لبنها عادة لها مستمرة.

4() رواه البخاري.

5() رواه البخاري ومسلم.

يَسْـــتَوْفُونَ (2) وَإِذا كـــالُوهُمْ أَوْ وَزَنُـــوهُمْ يُخْسِـــرُونَ (3) (المطففين)

وفي الحديث عن أنس قال: كنّا جلوسا عند رسول اللّه ، فقال: (يطلع عليكم الآن من هذا الفجّ رجل من أهل الجنّة.. الحديث وفيه : فما بلغ بك ما قال رسول اللّه ؟ فقال: ما هو إلّا ما رأيت. قال: فانصرفت عنه، فلمّا ولّيت دعاني فقال: ما هو إلّا ما رأيت غير أنّي لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشّا، ولا أحسده على خير أعطاه اللّه إيّاه. فقال عبد اللّه: (فهذه الّتي بلغت بك، وهي الّتي لا نطيق)(1)

ومرّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا. فقال: (ما هذا يا صاحب الطّعام؟) قال: أصابته السّماء يا رسول اللّه. قال: (أفلا جعلته فوق الطّعام كي يراه النّاس؟ من غشّ فليس منّي)(2)

وقال : (ما من عبد يسترعيه اللّه رعيّة، يموت يوم يموت وهو غاشّ لرعيّته إلّا حرّم اللّه عليه الجنّة)(3)

وقال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثا): الإشراك باللّه، وعقوق الوالدين وشهادة الزّور (أو قول الزّور)، وكان رسول اللّه متّكئا فجلس. فما زال يكرّرها حتّى قلنا ليته سكت)(4)

وقال ذات يوم في خطبته: (ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني يومي هذا. كلّ مال نحلته عبدا، حلال. وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم. وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطانا. وإنّ اللّه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلّا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنّما بعثتك لأبتليك

1() رواه أحمد.

2() رواه مسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه البخاري ومسلم.

وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء[1] تقرؤه نائما ويقظان. وإنّ اللّه أمرني أن أحرّق قريشا. فقلت: ربّ إذا يثلغوا رأسي[2] فيدعوه خبزة. قال: استخرجهم كما استخرجوك. واغزهم نغزك[3] وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله. وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنّة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدّق موفّق. ورجل رقيق القلب لكلّ ذي قربى ومسلم. وعفيف متعفّف ذو عيال. قال: وأهل النّار خمسة: الضّعيف الّذي لا زبر له، الّذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا. والخائن الّذي لا يخفى له طمع وإن دقّ إلّا خانه. ورجل لا يصبح ولا يمسي إلّا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخل أو الكذب (والشّنظير[4]الفحّاش)[5]

وفي الحديث أن رسول اللّه نهى أن تتلقّى السّلع حتّى تبلغ الأسواق[6].

وقال : (لا يتلقّى الرّكبان لبيع ولا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضر لباد، ولا تصرّوا الإبل والغنم. فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النّظرين، بعد أن يحلبها فإن رضيها أمسكها وإن سخطها ردّها وصاعا من تمر)[7]

الافتراء:

قال رجل من الحاضرين:وعينا هذا.. فهل هناك هاوية غيرها؟

1() كتابا لا يغسله الماء: معناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على ممر الزمان.

2() إذا يثلغوا رأسي: أي يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز، أي يكسر.

3() نغزك: أي نعينك.

4() الشنظير: فسره في الحديث بأنه الفحاش، وهو السيء الخلق.

5() رواه مسلم.

6() رواه البخاري ومسلم.

7() رواه البخاري ومسلم.

قال الخرائطي: أجل.. هناك هاوية الافتراء.. لقد ذكر الله تعالى أهل هذه الهاوية، فقال: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24) (آل عمران)، وقال: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (103) (المائدة)، وقال: وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144) (الأنعام)، وقال: إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (105) (النحل)

وأخبر تعالى أن **أكبر الظلم افتراء الكذب على اللّه وعلى النبيين وعلى الصالحين،** فقال: كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94) (آل عمران)، وقال: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً (48) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً (50) (النساء)، وقال: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) (الأنعام)

وأخبر عن عظم جرم المفترين، فقال: (إنّ أعظم النّاس فرية، لرجل هاجى رجلا، فهجا القبيلة بأسرها، ورجل انتفى من أبيه، وزنّى[1] أمّه)[2]، وقال: (إنّ من أعظم الفرى أن يدّعى الرّجل إلى غير أبيه، أو يري عينه ما لم تره، أو يقول على رسول

[1] زنّى أمّه: رماها بالزنا.

[2] رواه ابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد.

اللّه ما لم يقل)[1]، وقال: (ليس من رجل ادّعى لغير أبيه- وهو يعلمه- إلّا كفر باللّه، ومن ادّعى قوما ليس له فيهم نسب فليتبوّا مقعده من النّار)[2]، وقال: (من تحلّم بحلم لم يره كلّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرّون منه صبّ في أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صوّر صورة عذّب وكلّف أن ينفخ فيها، وليس بنافخ)[3]

الغدر:

قال رجل من الحاضرين:وعينا هذا.. فهل هناك هاوية غيرها؟

قال الخرائطي: أجل.. هناك هاوية الغدر.. لقد اعتبر الغدر من صفات المنافقين، فقال: (أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[4]

وقال : (قال اللّه: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثمّ غدر، ورجل باع حرّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره)[5]

وقال: (لكلّ غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره. ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامّة)[6]

وقال: (من أمّن رجلا على دمه فقتله فإنّه يحمل لواء غدر يوم القيامة)[7]

1() رواه البخاري.

2() رواه البخاري.

3() رواه البخاري.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه البخاري.

6() رواه البخاري ومسلم.

وقال: (ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)(1)

وقال: (ألا من قتل نفسا معاهدا له ذمّة اللّه وذمّة رسوله فقد أخفر بذمّة اللّه فلا يرح رائحة الجنّة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا)(2)

وقال: (خيركم قرني، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم)- قال عمران: لا أدري أذكر النّبيّ بعد قرنين أو ثلاثة- إنّ بعدكم قوما يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السّمن(3)(4)

وقال: شهدت حلف المطيّبين مع عمومتي وأنا غلام فما أحبّ أنّ لي حمر النّعم وأنّي أنكثه) قال الزّهريّ قال رسول اللّه : (لم يصب الإسلام حلفا إلّا زاده شدّة، ولا حلف في الإسلام) وقد ألّف رسول اللّه بين قريش والأنصار)(5)

وقال: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة، ولا يحلّها حتّى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء)(6)

وقال: (المسلمون تتكافأ دماؤهم: يسعى بذمّتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يردّ مشدّهم على مضعفهم، ومتسرّعهم على قاعدهم، لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو

7() رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

1() رواه أبو داود.

2() رواه البخاري، والترمذي، وهذا لفظ الترمذي.

3() يظهر فيهم السّمن: أي يحبون التوسع في المآكل والمشارب، وهي أسباب السمن. وقيل: المراد يظهر فيهم كثرة المال.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه أحمد.

6() رواه مسلم.

عهد في عهده)(1)

وقال: (من أعطى بيعة ثمّ نكثها لقي اللّه وليست معه يمينه)(2)

وقال: (من خرج من الطّاعـة، وفـارق الجماعـة فمـات مـات ميتة جاهليّة(3)، ومن قاتـل تحت رايـة عمّيّة(4) يغضـب لعصـبة، أو يدعو إلى عصبة. أو ينصر عصبة فقتـل فقتلـة جاهليّـة، ومن خـرج على أمّتي يضرب برّها وفاجرها ولا يتحـاش من مؤمنهـا، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس منّي ولست منه)(5)

وكان رسول اللّه إذا أمّر أميرا على جيش أو سريّة، أوصاه في خاصّته بتقـوى اللّـه ومن معـه من المسـلمين خـيرا. ثمّ قـال: (اغزوا باسم اللّه في سبيل اللّه. قـاتلوا من كفـر باللّـه. اغـزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدا)(6)

وعن جابرقال: لمّا رجعت إلى رسول اللّـه مهـاجرة البحـر قال: (ألا تحدّثوني بأعاجيب مـا رأيتم بـأرض الحبشـة؟) قـال فتيـة منهم: بلى يا رسول اللّـه! بينـا نحن جلـوس، مـرّت بنـا عجـوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلّة من ماء. فمرّت بفتى منهم. فجعـل إحـدى يديـه بين كتفيهـا، ثمّ دفعهـا: فخـرّت على ركبتيهـا. فانكسرت قلّتها. فلمّا ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم، يـا غـدر إذا وضـع اللّـه الكرسـيّ، وجمـع الأوّلين والآخـرين، وتكلّمت الأيـدي والأرجـل بمـا كـانوا يكسـبون، فسـوف تعلم كيـف أمـري وأمرك، عنده غدا. قال: يقول رسـول اللّـه : (صـدقت. صـدقت.

1() رواه أبو داود.

2() رواه الطبراني بسند جيد.

3() ميتة جاهلية: أي على صفة موتهم من حيث هم فوضى لا إمام لهم.

4() عمية: هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه.

5() رواه مسلم.

6() رواه مسلم.

كيف يقدّس اللّه أمّة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم)[1]

***

بقينا مع الخرائطي أياما معدودات يعلمنا فيها أسرار الجحــود وأركانه وآثـاره، ويسـتعمل في التنفـير عنـه كـل مـا آتـاه اللـه من العلم والحكمة..

وبعــد أن رأى أن المحيطين بــه قــد فقهــوا عنــه مــا أراد أن يبلغهم إياهم ويدربهم عليه، طلب منهم أن يسيروا للقســم الثـاني من أقسام المدرسة.

[1] () رواه ابن ماجة وأبو يعلي وله شاهد عند البزار والبيهقي في السنن وابن حبان.

ثانيا ـ الأنا

بعد أن انتهينا من الدراسة في القسم الأول، وبعد أن رأيت تأثير التعاليم التي بثها الخرائطي في نفوس السامعين..سرت مع أهل السوق إلى القسم الثاني، وكان اسمه (قسم الأنا)، وقد عرفنا أن شيخه هو أبو بكر الآجري[1]، وأن له – كسميه – مصنفات في الأخلاق منها (أخلاق حملة القرآن)، و(أخلاق العلماء)، و(أدب النفس)، و(كتاب أهل البر والتقوى)، و(كتاب التوبة)، و(كتاب التهجد)، وغيرها كثير.

وقد سألنا الآجري عن سر تسمية هذا القسم بهذا الاسم، وسر كونه هو القسم الثاني التالي لقسم الجحود، فقال: إن أول ما يتصف به من جحد مولاه هو تضخم أناه.. وإن أول كلمة ينطق بها من نسي الله هي كلمة أنا..

قال له بعض الحاضرين: ولكن أنا هي أول لفظة يعبر بها الإنسان عن نفسه.. فهل ترى الإنسان آثما بنطقه بها؟

قال الآجري: في الخلق من يقول (أنا) لمجرد التعرف والتعريف، ويستعملها كما يستعمل جميع الضمائر منفصلة ومتصلة لا يشعر بالتغاير بينها ولا يعتقد أن أنا أفضل من أنت، أو أنا خير من هو أو هم.

وفي الخلق من يستعملها كأداة يمحو بها غيره، ويخضع بها رقاب غيره، يقولها ملء فيه، ويتصور أنها كافيه بمجرد نطقه بها أن يسجد لها الخلق، وأن يسمعوا ويطيعوا، أو يسبحوا ويكبروا.

قال الرجل: فما الفرق بين الأول والثاني؟

قال الآجري: الأول يشعر أنه جزء من كل، وفرد في مجموع،

---

[1] () أشير به إلى محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري (ت 360 هـ)، وهو فقيه شافعي محدث، نسبته إلى آجر (من قرى بغداد) ولد فيها، وحدث ببغداد، قبل سنة 330 ثم انتقل إلى مكة، فتنسك، وتوفي فيها. له مؤلفات كثيرة في الأخلاق اخترناه هنا لأجلها، منها (أخلاق حملة القرآن) و(أخلاق العلماء) و(التفرد والعزلة) و(حسن الخلق) و(الشبهات) و(تغير الازمنة) و(النصيحة) و(كتاب الاربعين حديثا) و(كتاب الشريعة) و(الغرباء) و(فرض طلب العلم) و(ما ورد في ليلة النصف من شعبان)

وواحد من عدد ضخم يتشكل منه بنيان الكون، أما الثاني فيعتقد أنه هو الكل، وغيره فروع لخدمته، وأنه هو المجموع وغيره شتات يتوحدون فيه، وأنه هو الواحد وغيره أصفار عن يساره و يمينه يتشكل منه عدده.

الأول يرى نفسه وغيره، ويسمع الأصوات جميعا، وبكل موجاتها، وينمحي في الآخرين كما ينمحون فيه، ويحبهم ويتفاعل في حياته معهم، أما الثاني فلا يرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا حسه أومن ضبطت موجاته بحسب ترددات حسه، ولا يعرف الصفر وجوده لأن الصفر غيره.

الأول إذا مشى لم تشعر به الأرض،ولم يتحرك له النسيم، ولم تهرب الطيور من أوكارها ولا النمل إلى قراها ولم تهتز صفحة الماء وهو يطالعها بوجنته، أما الثاني فتندك الأرض من تحته، ويتخلخل السحاب من فوقه، وتفر النسور من قمم الجبال إن نظر إليها، وترتفع أمواج البحار إن طالعها بصفحته كالقمر يمدها ويسحبها.

قال الرجل: فالأنا الآثمة هي الأنا الثانية إذن؟

قال الآجري: أجل.. إنها الأنا التي تمتلئ عجبا بنفسها، ثم يفيض عجبها كبرا على غيرها.

لقد ضرب القرآن الكريم النماذج عن هذه الأنا الآثمة.. وأولها وسابقها إبليس.. ذلك الذي رفض طاعة الله بالسجود لآدم، فعندما قال الله له :﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين ﴾ (الأعراف:12)

ومن ذلك الحين بدأ التعاظم بالذات، وبدأ الانفصال عن الكون المتكامل المتوازن، وورث خلق كثير من بني آدم هذه الكلمة وتعاظموا بها وتاهوا وأسسوا المعابد والقصور لتعبد ذواتهم، لأن الدماء الإلهية تسري في عروقهم، وشيدوا التماثيل ونشروا صورهم في كل المحلات وعلقوها على جميع الجدران، وقتلوا كل ذبابة تطن أثناء حديثهم، وقطعوا حبال كل من رفع صوته أمامهم، وأنشأوا دور الأمن المختلفة لتقوم بما يجب في

حقهم من تشريفات وتعظيمات وتبجيلات.

والقرآن الكـريم يقص علينـا من أنبـاء هـؤلاء.. ومنهم الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَـالَ أَنَـا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ فَـإِنَّ اللَّهَ يَـأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) (البقرة)

والقرآن الكريم يشير بهذا إلى السذاجة التي يقع فيهـا هـؤلاء المتعاظمين بأنفسهم حين يصدقون أنهم ــ حقيقـة ــ آلهـة مـا دام الملـك بأيـديهم ورقـاب الخلـق بين أيـديهم يقتلـون من يشـاءون ويحيون من يريدون بدون معارضة ولا محاسبة.

وهذا التعاظم يحجب عن أعينهم مظاهر القصور الكثيرة التي تحيط بجميع ذواتهم، ولهذا قبل هذا الملـك المنـاظرة مـع إبـراهيم ﵇ لأنه كان يظن أن ألوهيته أمر بـديهي لا ينـاقش فيـه، وتصـوير دهشته وحيرته عندما واجهه إبـراهيم ﵇ بالشـمس يـدل على أنـه لم يكن يراها كما يراها سائر الناس لأنه كان مشـغولا بنفسـه، ولا يرى غيره إلا أصفارا يعكفون على التسبيح له.

والقرآن الكريم يـذكر نموذجـا آخـر لتعـاظم الأنـا يفصـل في ذكره تفصيلا لم يحظ به اسم كـافر غـيره، هـو فرعـون حيث ذكـر اسمه في القرآن الكريم في سبعة وستين موضعا، وهـذا النمـوذج تنطبق عليه نفس صفات النمـوذج السـابق إلا أن القـرآن الكـريم يفسـر سـبب مرضـه، وينص عليـه في قولـه تعـالى : فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) (الزخرف)

ففسق قومه وخفة عقولهم وطاعتهم المطلقة لـه وقـابليتهم لألوهيته هي التي جعلته يصدق حقيقة أنه إله ينبغي أن يعبد، ولهذا كان يصيح فيهم دائما بخطبة واحدة تكفي مـبررا لأي أمـر يصـدره هي :.. أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) (النازعات)

وعندما جاءه موسى ﵇ يدعوه إلى الله ويعرفه بأنـه رسـول رب العالمين تعجب أن يكون هناك إله غـيره فسـأله: .. وَمَـا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) (الشعراء)

وعندما أراهم موسى ﷺ كل الحجج نهض فرعون يصيح في قومه وهو يتصور أن كلماته وحدها تكفي لتقرير ما يقول ونسف جميع معجزات موسى ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)﴾ (القصص)، وهذه هي السذاجة التي يتحلى بها كل من يعظم أناه ويمحو غيره.

لقد كان يتصور أنه إن وجد إله آخر فلن يعدو كونه صاحب سرير مثل سريره أو تاج مثل تاجه، مثلما تتصور الخلائق جميعا من أصحاب الملل المنحرفة آلهتها عندما تطبعها بطابع القومية والعرقية والأرض وتغرق ربها في مستنقعات من الأساطير لتعبد ذاتها من خلال ربها، وتنزل ربها من علياء وجوده ليرفع رايتها ويصيح بشعاراتها ويفكر بتفكيرها.

ويصور القرآن الكريم أسلوب هؤلاء المتعاظمين مع كل من يقيم عليهم الحجة، وهو أسلوب واحد في مختلف فترات التاريخ وإن تعددت أشكاله، وهو ما صاح به فرعون في وجه موسى ﷺ: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)﴾ (الشعراء)، ثم يتوجه إلى الملأ من قومه ناصحا في غاية التواضع: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)﴾ (غافر)، والفساد الذي يعنيه فرعون هنا هو أن يتحول غيره أرقاما ويصير هو جزءا من كل.

والقرآن الكريم يخبرنا بذلك التهديد ومحاولة تنفيذه ليبين سذاجة التفكير الناتج عن كسل عقل المتعاظم الذي لا يرى غيره ولا يستفيد من غيره، والذي يحول بينه وبين الصبر على أي مناظرة أو التنازل لقبول أي حجة.

ولهذا نرى في جميع مواطن الحوار بين المؤمنين وغيرهم في القرآن الكريم الكفار يقطعون الحوار بإثارة الشغب والتهديد بالقتل والرجم أو بممارسة القتل نفسه، فإبراهيم ﷺ يقطع حواره الرقيق مع والده بهذا التهديد الخطير: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾ (مريم)، والرجل الذي جاء قومه يسعى في سورة يس يقطع

حواره بقتله ليستأنف القرآن الكريم ذكر تتمة حديثه بعد موته، ومؤمن آل فرعون قطع حواره الطويل البليغ بما يشير إلى محاولة قتله، كما قال تعالى : فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) (غافر)

والقرآن الكريم يبين أن ذلك التيه بالذات قد لا يكون بسبب ملك عريض أو عرش عظيم، بل قد يتيه الإنسان ببستان يملكه يمحو من خلاله غيره ويتعاظم عليهم، كما قال تعالى عن صاحب الجنتين : وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) (الكهف)

بل قد يقول هذا الضمير البسطاء من الخدم والسقاة لمعارف بسيطة يعلمونها أو يدعونها كما قال تعالى عن أحد صاحبي يوسف ﷺ في السجن : وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) (يوسف)، ولهذا أنكر عليه الحسن البصري، وقال: كيف ينبئهم العلج؟!، بل في القرآن الكريم ما يشير إلى هذا الإنكار عندما طلب منه يوسف ﷺ أن يذكره عند ربه فنسي، فمن اللؤم نسيان نبي عرف صديقيته وإحسانه وبشره بنجاته.

ولهذا نرى أن كل من قال أنا في القرآن الكريم من الكفرة يقولها متعاظما مهما اختلف نوع تعاظمه.

قال رجل من الحاضرين: ولكن القرآن يذكر أن المؤمنين يقولون هذه الكلمة.. بل إن الله تعالى يأمر رسوله بأن يقولها.. ألم تسمع قوله تعالى مخاطبا رسوله : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188) (الأعراف)

قال الآجري: إن الله تعالى يأمر نبيه في هذه الآية الكريمة أن ينفي ادعاء أي ملكية لنفع يجلبه لنفسه أو ضر يمنعها منه إلا بما يسره الله له من قوى، وينفي عنه ادعاء الغيب، ويأمره أن يقول في تواضع : إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

وبمثل ذلك يأمره في آية أخرى أن يخبرهم بأنه بشر مثلهم آتاه الله الرسالة، وأما الله تعالى فواحد، وأن لقاء الله مرتبط بأعمالهم التوحيدية المحضة لينفي عنهم أي ظن في نسبة الألوهية له كما نسبها النصارى للمسيح قال تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110) (الكهف)

وقد أمر الله تعالى نبيه أن يقول هذه الكلمات التي تفيض بالتواضع لقوم عتاة متكبرين يتصورون أن مقامهم الرفيع يستدعي إنزال ملائكة أويستدعي خطابا مباشرا من الله بل رؤية مباشرة له، قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) (الفرقان)

وكانوا يقولون له في تعاظم إذا أمرهم بالسجود للرحمن : وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) (الفرقان)

العجب:

قال رجل من الحاضرين: وعينا هذا.. ووعينا خطورته.. فحدثنا عن الصنم الأول من أصنام الأنا.. ذلك الذي سميته العجب[1].

قال الآجري: العجب هو ذلك الصنم الذي ذكره الله تعالى، فقال : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) (التوبة)

وذكر نموذجا آخر له، فقال: كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَراً (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35) وَما أَظُنُّ

1() عرف العجب بأنه: (استعظام النّعمة والرّكون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم عزّ وجلّ)

السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (36) (الكهف)

وذكر نموذجا آخر له، فقال: قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) (القصص)

وذكر مآل أمره في الدنيا، فقال:: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (2) (الحشر)

وذكر مآل أمره في الآخرة، فقال: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (106) (الكهف)

وهو الصنم الذي ذكره رسول الله ، فقال: (لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه، العجب)[1]

وقال: (بينما رجل يمشي في حلّة تعجبه نفسه، مرجّل جمّته[2]، إذ خسف اللّه به، فهو يتجلجل[3] إلى يوم القيامة)[4]

بل اعتبره حجابا من الحجب الحائلة بين العقول وقبول

1() رواه البزار بإسناد جيد.

2() الجمه: هي مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين.

3() التجلجل هو أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد، ويندفع من شق إلى شق، والمراد أنه ينزل في الأرض مضطربا متدافعا.

4() رواه البخاري.

الحق، فعندما سئل عن قوله تعالى : يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ (المائـدة: 105) قـال: (بـل ائتمـروا بمعـروف، وتنـاهوا عن المنكـر، حتّى إذا رأيت شـحّا مطاعا، وهـوى متّبعـا، ودنيـا مـؤثرة، وإعجـاب كـلّ ذي رأي برأيـه فعليـك- يعـني بنفسـك- ودع عنـك العـوامّ، فـإنّ من ورائكم أيّـام الصّبر، الصّبر فيه[1] مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله)[2]

قلنـا: عرفنـا التحـذير، ولكنـا لم نعـرف المحـذر منـه.. فمـا العجب؟

قـال الآجـري[3]: العجب هـو السـرور والفـرح بـالنفس وبمـا يصدر عنها من أقوال أو أعمال من غير تعد أو تجاوز إلى الآخـرين من الناس، سواء أكانت هذه الأقوال وتلك الأعمال خـيراً أو شـراً، محمـودة أو غـير محمـودة.. فـإن كـان هنـاك تعـد أو تجـاوز إلى الآخرين من الناس باحتقار أو استصغار ما يصدر عنهم فهو الغرور أو شدة الإعجاب.. وإن كان هنـاك تعـد أو تجـاوز إلى الآخـرين من النـاس باحتقـارهم في أشخاصـهم وذواتهم والـترفع عليهم فهـو التكبر أو شدة الإعجاب.

قال الرجل: فقد آل أمر الكبر إلى العجب؟

قال الآجري: أجل.. فلولا العجب ما كان الكبر..

قال الرجل: فحدثنا عن البذور الـتي تنبت شـجرة العجب في النفس.

قال الآجري: لاشك أن أولها هو تلك النشأة الأولى التي يربى الإنسان عليها.. فقد ينشأ الإنسـان بين أبـوين يلمس منهمـا أو من أحدهما حب المحمدة ودوام تزكية النفس والاستعصاء على النصح والإرشاد ونحو ذلك من مظاهر الإعجاب فيحاكيهما، وبمرور الزمن

1() فيه: أي في ذلك الوقت وتلك الأيام.

2() رواه أبو داود، واللفظ له، وابن ماجة.

3() من مراجعنا في هذا المطلب كتاب (آفات على الطريق)، للدكتور السيد محمد نوح.

يتأثر بهما ويصبح الإعجاب بالنفس جزء من شخصيته إلا إذا أنقـذه الله منه.

ومنها الجهل بحقيقة النفس.. ذلـك أن الإنسـان إذا غفـل أو جهل حقيقة نفسه، وأنها من ماء مهين، وأن النقص دائماً طبيعتها وسـمتها، وأن مردهـا أن تلقى في الـتراب، فتصـير جيفـة منتنـة، تنفر من رائحتها جميع الكائنات.. إذا غفـل الإنسـان أو جهـل ذلـك كله ربما خطر بباله أنه شئ، ويقوى الشـيطان فيـه هـذا الخـاطر حتى يصير معجباً بنفسه.. ولعل هذا هو السر في حديث القـرآن و السنة المتكرر عن حقيقة النفس الإنسانية بدءاً، ونهاية.

ومنها صحبة المعجـبين بأنفسـهم.. ذلـك أن الإنسـان شـديد المحاكـاة والتـأثر بصـاحبه لا سـيما إذا كـان هـذا الصـاحب قـوى الشخصـية ذا خـبرة ودرايـة بالحيـاة وكـان المصـحوب غـافلا على سجيته يتأثر بكل ما يلقى عليه وعليه، فـإذا كـان الصـاحب مصـابا بداء الإعجاب، فإن عدواه تصل إلى قرينه فيصير مثله.

ومنها الوقوف عند النعمة ونسيان المنعم.. فمن الناس من إذا حباه الله نعمة من مال أو علم أو قـوة أو جـاه أو نحـوه وقـف عند النعمة ونسى المنعم وتحت تـأثير بريـق المـواهب وسـلطانها تحدثه نفسه أنه ما أصابته هذه النعمة إلا لمـا لديـه من الكرامـة.. ولا يزال هذا الحديث يلح عليه حتى يرى أنه بلـغ الغابـة أو المنتهي ويسر ويفرح بنفسه وبما يصدر عنها ولو كان باطلا.

ومنها الإطــراء والمــدح في الوجــه دون مراعــاة للآداب الشـرعية المتعلقـة بـذلك.. ذلـك أن هنـاك فريقـا من النـاس إذا أطـرى أو مـدح في وجهـة دون تقيـد بـالآداب الشـرعية في هـذا الإطراء وذلـك المـدح اعـتراه - لجهلـه بمكائـد الشـيطان - خـاطر يقول له: إنك ما مدحت إلا لما تملك من المواهب.. وما يزال هـذا الخاطر يلاحقه ويلح عليه حتى يصاب بالإعجاب بالنفس..

ولهــذا ورد في النصــوص المقدســة النهي عن المــدح في الوجه، ففي الحديث أن رسـول اللـه قـال: (إذا رأيتم المـداحين

فاحثوا في وجوههم التراب)[1]

وفي حديث آخر أن النبي سمع رجلا يثني على رجل ويطريه في المدحة، فقال: (أهلكتم - أو قطعتم - ظهر الرجل)[2]

قال الرجل: **فما الثمار التي تنتجها هذه الشجرة المنتنة**؟

قال الآجري: كثيرة جدا هي الثمار المسمومة التي تنتجها تلك البذرة الخبيثة..

لعل **أولها** هو الوقوع في شراك الغرور والتكبر.. ذلك أن المعجب بنفسه كثيراً ما يؤدى به الإعجاب إلى أن يهمل نفسه، ويلغيها من دفتر التفتيش والمحاسبة.. وبمرور الزمن يستفحل الداء، ويتحول إلى احتقار واستصغار ما يصدر عن الآخرين، وذلك هو الغرور، أو يتحول إلى الترفع عن الآخرين، واحتقارهم في ذواتهم وأشخاصهم، وذلك هو التكبر.

ومنها الحرمان من التوفيق الإلهي.. ذلك أن المعجب بنفسه كثيراً ما ينتهي به الإعجاب إلى أن يقف عند ذاته، ويعتمد عليها في كل شئ ناسياً أو متناسياً خالقه وصانعه ومدبر أمره والمنعم عليه بسائر النعم الظاهرة و الباطنة، ومثل هذا يكون مآله الخذلان وعدم التوفيق في كل ما يأتي وفي كل ما يدع، لأن سنة الله تعالى مضت بأنه لا يمنح التوفيق إلا لمن تجردوا من ذواتهم، واستخرجوا منها حظ الشيطان، بل ولجأوا بكليتهم إليه، تبارك اسمه وتعاظمت آلاؤه، وقضوا حياتهم في طاعته وخدمته، كما قال تعالى في كتابه الكريم: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) (العنكبوت)، وكما ورد في الحديث القدسي:(.. وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألني

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه البخاري ومسلم.

لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه)(1)

ومنهـا الانهيـار في أوقـات المحن و الشـدائد.. ذلـك أن المعجب بنفسه كثـيراً مـا يهمـل نفسـه من التزكيـة والـتزود بـزاد الطريق، ومثل هذا ينهار ويضعف مـع أول شـدة أو محنـة يتعـرض لها، لأنه لم يتعرف على الله في الرخاء حتى يعرفـه في الشـدة، كما قـال تعـالى:﴿ِنَّ اللَّهَ مَـعَ الَّذِينَ اتَّقَـوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِـنُونَ (128)﴾ (النحــل)، وقــال :﴿.. وَإِنَّ اللَّهَ لَمَــعَ الْمُحْسِــنِينَ (69)﴾ (العنكبوت)، وقال ﷺ :(احفظ الله تجده أمامـك، تعـرف إلى اللـه في الرخاء يعرفك في الشدة..)(2)

ومنها النفـور من الآخـرين.. ذلـك أن المعجب بنفسـه قـد عرَّض نفسه بصنيعه هذا لبغض الله لـه، ومن أبغضـه اللـه أبغضـه أهـل السـموات، ثم يوضـع لـه البغض في الأرض، فـترى النـاس ينفرون منه، ويكرهونه ولا يطيقون رؤيته، بـل ولا سـماع صـوته.. لقد أخبر رسول اللـه ﷺ عن هـذا، فقـال:(إن اللـه إذا أحب عبـداً، دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبَّه، قال: فيحبـه جبريـل، ثم ينادى في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فـأحبوه فيحبـه أهـل السماء، قال : ثم يوضع له القبـول في الأرض، وإذا أبغض عبـداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضْه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء، إن الله يبغض فلانـاً فأبغضـوه، قـال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض)(3)

ومنها العقــاب أو الانتقــام الإلهي عــاجلاً أو آجلاً.. ذلــك أن المعجب بنفسه قد عرَّض نفسه بهذا الخلق إلى العقـاب والانتقـام الإلهي عـاجلاً بـأن يصـاب بـالقلق والتمـزق والاضـطراب النفسـي وغيرها من ألوان العقوبات العاجلة، أو آجلاً بـأن يعـذب في النـار مـع المعـذبين.. لقـد جمـع رسـول اللـه ﷺ بين هـذين النـوعين من العقوبـات، فقـال :(بينمـا رجـل يمشـى في حلـة تعجبـه نفسـه،

1() رواه البخاري وغيره.

2() رواه أحمد.

3() رواه مسلم.

مرجِّل جمَّته[1] إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة)[2]

قال الرجل: وعينا هذا.. فما المنشـار الـذي نقطـع بـه جـذور هذه الشجرة؟

قـال الآجـري: هـذه الشـجرة لا تقطـع، وإنمـا توجـه بـذورها التوجيه الصحيح لتنتج الثمار الصحيحة.

قال الرجل: **فبم توجه؟.. وكيف توجه؟**

قال الآجري: **أولها** تذكر الإنسان دائماً لحقيقة نفسه، فـإذا علم المعجب بنفسه أن نفسـه الـتي بين جنبيـه لـولا مـا فيهـا من النفخة الإلهية ما كانت تساوى شيئاً، فقد خلقت من تراب تدوسـه الأقدام، ثم من ماء مهين يـأنف النـاظر إليـه من رؤيتـه، وسـترد إلى هذا التراب مرة أخرى، فتصير جيفة منتنة، يفر الخلــق كلهم من رائحتها، وهي بين البدء والإعـادة تحمـل في بطنهـا الفضـلات ذات الروائح الكريهة، ولا تستريح ولا تهدأ إلا إذا تخلصت من هـذه الفضلات.

إن مثل هذا التذكر يساعد كثيراً في ردع النفس، وردهـا عن غيها، واقتلاع داء الإعجاب منها، بل وحمايتها من التورط فيه مرة أخرى.

وقد لفت أحد الصالحين النظر إلى هـذه الوسـيلة حين سـمع معجباً بنفسـه قـائلاً :(أتعـرف من أنـا؟) فـرد عليـه بقولـه: (نعم : أعـرف من أنت، لقـد كنت نطفـة مـذرة، وستصـير جيفـة قـذرة، وأنت بين هذا وذاك تحمل العذرة)

وقد ذكر بعض الشعراء هذا المعنى، وأحسن، فقال:

يا مظهر الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك فإنّ النّتن تثريب
لو فكّر النّاس فيما في ... ما استشعر الكبر شبّان

[1] () مرجل جمته : أي مسرح ما سقط على المنكبين من شـعر رأسـه، إذ الجمـة من شـعر الرأس ما سقط على المنكبين.

[2] () رواه البخاري ومسلم.

بطونهم ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الرّأس مكرمة وهو بخمس من الأقذار مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك والعين مرفضّة والثّغر ملعوب
يا بن التّراب ومأكول التّراب غدا أقصر فإنّك مأكول ومشـــــروب

قال آخر: علمنا هذا.. فهل هناك بلسم غيره؟

قال الآجري: أجل.. تذكر حقيقة الـدنيا والآخـرة.. فـإذا عـرف المعجب بنفسه أن الدنيا مزرعـة للآخـرة، وأنـه مهمـا طـال عمـر الـدنيا فإنهـا إلى زوال، وأن الآخــرة هي الباقيــة، وأنهـا هي دار القرار.. إذا عرف هذه الحقائق فإنه لا شـك سـيعدل من سـلوكه، ويقوم عوج نفسه، قبل أن تنتهي الحياة، وقبل أن تضيع الفرصة، ويفوت الأوان.

قال آخر: فما غيره؟

قال الآجري: تذكر النعم التي تغمر الإنسان، وتحيـط بـه من كل الجهات، كما قال تعالى: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَـةَ اللَّهِ لَا تُحْصُـوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) (النحل)، وقال تعالى : أَلَمْ تَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَأَسْـبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَـهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.. (20) (لقمان)

إن هذا التذكر من شـأنه أن يشـعر الإنسـان بضـعفه وفقـره، وحاجته إلى الله دائمـاً، وبالتـالي يطهـر نفسـه من داء الإعجـاب، بل ويقيه أن يبتلى به مرة أخرى.

قال آخر: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال الآجـري: التفكـر في المـوت ومـا بعـده من منـازل ومن شدائد وأهوال، فإن ذلك كفيل بـاقتلاع الإعجـاب من النفس، بـل وتحصينها ضده، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال آخر: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال الآجري: دوام الاستماع أو النظر في كتاب الله تعالى وسنة النبي ، ودوام حضور مجالس العلم، لاسيما تلك التي تدور حول علل النفس وطريق الخلاص منها، فإن أمثال هذه المجالس كثيراً ما تعين على تطهير النفس، بل وصيانتها.

قال آخر: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال الآجري: الاطلاع على أحوال المرضى وأصحاب العاهات بل و الموتى، لاسيما في وقت غسلهم وتكفينهم ودفنهم، ثم زيارة القبور بين الحين والحين والتفكر في أحوال أهلها ومصيرهم، فإن ذلك يحرك الإنسان من داخله، ويحمله على اقتلاع العجب ونحوه من كل العلل والأمراض النفسية أو القلبية.

قال آخر: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال الآجري: تعريض النفس بين الحين والآخر لبعض المواقف التي تقتل كبرياءها وتضعها في موضعها الصحيح، كأن يقوم صاحبها بخدمة إخوانه الذين هم أدنى منه في المرتبة، أو أن يقوم بشراء طعامه من السوق، وحمل أمتعته بنفسه.

الكبر:

قال رجل من الحاضرين: وعينا هذا فحدثنا عن الصنم الثاني من أصنام الأنا.. ذلك الذي سميته الكبر.

قال الآجري[1]: التكبر هو إظهار الإنسان إعجابه بنفسه بصورة تجعله يحتقر الآخرين في أنفسهم وينال من ذواتهم ويترفع عن قبول الحق منهم.

قال الرجل: ففرح الإنسان المجرد بما عنده ليس كبرا؟

قال الآجري: هو ليس كبرا، ولكنه قد يصير عجبا.. وقد ورد في الحديث عن رسول الله أنه قال:(لا يدجل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة؟ قال: (إن الله جميل يحب الجمال..

---

[1]() من مراجعنا في هذا المطلب كتاب (آفات على الطريق)، للدكتور السيد محمد نوح.

الكبر بطر الحق[1] وغمط الناس[2])[3]

قال الرجل: أليس التكبر هو العزة؟

قال الآجري: التكبر هو العزة بالباطل، وهي التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206)﴾ (البقرة)، وقوله تعالى :﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139)﴾ (النساء)

وقد تكون هناك عزة بالحق.. وهي العزة التي أشار إليها قوله تعالى:﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)﴾ (فاطر)

وقد جمع الله بينهما في قوله تعالى :﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)﴾ (المنافقون)

قال الرجل: فما **البذور التي تنبت منها شجرة الكبر**؟

قال الآجري: جميع البذور التي تنبت منها شجرة العجب تنبت منها شجرة الكبر.. فليس الكبر إلا ثمرة من ثمار العجب..

قال الرجل: ولكن الكبر غير العجب.. وهذا يعني أن للكبر مياهه الخاصة التي تسقيه.

1() بطر الحق: إنكار الحق ودفعه ترفعاً وتجبراً.

2() غمط الناس: احتقارهم.

3() رواه مسلم.

قال الآجري: صدقت..

قال الرجل: فاذكر لنا منها ما نعرف به منابع الكبر من نفوسنا.

قال الآجري: من ذلك اختلال معايير التفاضل عند الناس..

قال الرجل: متى يكون ذلك.. وما علاقته بالكبر؟

قال الآجري: يحصل ذلك إذا ساد الجهل في الناس إلى حد اختلال القيم أو معايير التفاضل عندهم، فتراهم يفضلون صاحب الدنيا، ويقدمونه حتى لو كان عاصياً أو بعيداً عن الله، في الوقت الذي يحتقرون فيه البائس المسكين الذي أدارت الدنيا ظهرها له حتى وإن كان طائعاً ملتزماً بهدى الله، ومن يعيش في هذا الجو قد يتأثر به.. ويتجلى هذا التأثر في احتقار الآخرين و الترفع عليهم.

وقد ألمح القرآن الكريم إلى هذا الباعث، فقال: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56) (مريم)، وقال: وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37) (سبأ)

وقد روي في الحديث أنه ﷺ مر على رجل، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: نقول هو من أشرف الناس، هذا حري إن خطب أن يخطب، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع لقوله، فسكت النبي ، ومرَّ رجل آخر، فقال النبي :ما تقولون في هذا؟ قالوا : نقول والله يا رسول الله، هذا من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب لم ينكح، وإن شفع لا يشفع، وإن قال لا يسمع لقوله، فقال النبي : (لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا)[1]

---

[1] رواه ابن ماجة.

قال آخر: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال الآجري: مقارنة المتكبر ما رزقه الله من نعمة بما رزقه الآخرين مع نسيان المنعم، ذلك أن من الناس من يحبوه الله - لحكمة يعلمها - بنعم يحرم منها الآخرين، كالصحة والولد والمال والجاه والعلم وحسن الحديث.. وتحت تأثير هذه النعم ينسى المنعم، ويأخذ في الموازنة بين نعمته ونعمة الآخرين فيراهم دونه فيها، وحينئذٍ يحتقرهم ويزدريهم ويضع من شأنهم.. وهذا هو التكبر.

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى هذا السبب من خلال حديثه عن قصة صاحب الجنتين فقال: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) (الكهف)

قال آخر: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال الآجري: ظن دوام النعمة وعدم التحول عنها..

قال الرجل: ما معنى هذا؟

قال الآجري: أنتم ترون أن بعض الناس قد تأتيه النعمة من نعم الدنيا، وتحت تأثيرها وبريقها يظن دوامها أو عدم التحول عنها، وينتهي به هذا الظن إلى التكبر أو الترفع أو التعالي على عباد الله، كما قال صاحب الجنتين لصاحبه:.. مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) (الكهف)، وكما قال الله عن الإنسان: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى.. (50) (فصلت)

قال آخر: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال الآجري: السبق.. فبعض الناس يتيح الله له من الفرص

ما يسبق به غيره.. وقد يجره النظر إلى سبقه إلى ازدراء اللاحق والنظر إليه نظرة ازدراء واحتقار.

وقد لفت الله تعالى النظر إلى هذا السبب حين بين أن السبق لا يعتبر، ولا قيمة له إلا إذا كان معه الصدق، فقال: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)﴾ (الحشر)

انظروا كيف لم يعتبر الله مجرد السبق مزية وفضلا، بل ضم إليه الأسباب الحقيقية للتفضيل، ومنها الهجرة والنصرة واتباع سبيل المؤمنين، وحسن الصلة بالله ومعرفة الفضل لذويه وغيرها.

قال آخر: وعينا هذا.. فما غيره؟

قال الآجري: الغفلة عن الآثار المترتبة على التكبر.. فمن غفل عن الآثار الضارة لعلة من العلل، أو آفة من الآفات، فإنه يصاب بها وتتمكن من نفسه، ولا يشعر بذلك إلا بعد فوات الأوان.

قال رجل: وعينا هذا.. فحدثنا عن الألوان التي يظهر بها المتكبر، والملابس التي يلبسها.

قال الآجري: لقد ذكر الله تعالى مظاهر الكبر وألوانه وألبسته، وفصل ذلك تفصيلا طويلا محذرا منه:

ومن ذلك الاختيال في المشية مع لي صفحة العنق وتصعير الخد، قال تعالى:﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9)﴾ (الحج)، وقال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) (لقمان)، وقال : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23) (الحديد)

ومن ذلك الإفساد في الأرض عندما تتاح له الفرصة مع رفض النصيحة، والاستنكاف عن الحق، قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) (البقرة)

ومن ذلك التقعر في الحديث، وفي الحديث عن رسول الله قال: (إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه، كما تخلل البقرة بلسانها)[1]، وقال : (ألا أنبئكم بشراركم؟ هم الثرثارون المتشدقون..)[2]

ومن ذلك محبة أن يسعى الناس إليه، ولا يسعى هو إليهم، وأن يمثلوا له قياماً إذا قدم أو مر بهم، وفي الحديث قال رسول الله :(من أحب أن يمتثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار)[3]

قال آخر: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثمار التي تثمرها شجرة الكبر المسمومة.

قال الآجري: أولها الحرمان من النظر والاعتبار.. فالمتكبر - بترفعه وتعاليه على عباد الله - قد اعتدى من حيث يدرى أو لا يدرى على مقام الألوهية، ومثل هذا لابد له من عقوبات، وأولها الحرمان من النظر والاعتبار، فتراه يمر على آيات الله المبثوثة في النفس والكون، وهو في إعراض تام عنها، قال تعالى: وَكَأَيِّنْ

1() رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

2() رواه أحمد.

3() رواه أبو داود.

مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105)﴾ (يوسف)

ومن حرم النظر والاعتبار كانت عاقبته البوار و الخسران المبين، لأنه سيبقى مقيماً على عيوبه وأخطائه، غارقاً في أوحاله.. لقد ذكر الله ذلك، فقال:﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146)﴾ (الأعراف)

قال آخر: عرفنا هذه الثمرة، وعرفنا خطرها.. فهل هناك غيرها؟

قال الآجري: أجل.. هناك ثمرة القلق والاضطراب النفسي.. فالمتكبر يحب - إشباعاً لرغبة الترفع والتعالي أن يحنى الناس رؤوسهم له، وأن يكونوا دوماً في ركابه، ولأن أعزة الناس وكرامهم يأبون ذلك، بل ليسوا مستعدين له أصلاً، فإنه يصاب بخيبة أمل، تكون عاقبتها القلق والاضطراب النفسي، هذا فضلاً عن أن اشتغال هذا المتكبر بنفسه يجعله في إعراض تام عن معرفة الله وذكره، وذلك له عواقب أدناها في هذه الدنيا القلق والاضطراب النفسي.

لقد ذكر الله ذلك، فقال:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126)﴾ (طه)، وقال :﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17) ﴾ (الجن)

قال آخر: عرفنا هذه الثمرة، وعرفنا خطرها.. فهل هناك غيرها؟

قال الآجري: أجل.. هناك ثمرة الملازمة للعيوب والنقائص.. ذلك أن التكبر لظنه أنه بلغ الكمال في كل شئ لا يفتش في نفسه، فيصلح ما هو في حاجة منها إلى إصلاح، ولا يقبل كذلك نصحاً أو توجيهاً أو إرشاداً من الآخرين، ومثل هذا يبقى غارقاً في

عيوبه ونقائصه، ملازماً لها إلى أن تنقضي الحياة، ويدخل النار مع الداخلين، قال تعالى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) (الكهف)

قال آخر: عرفنا هذه الثمرة، وعرفنا خطرها.. فهل هناك غيرها؟

قال الآجري: أجل.. هناك ثمرة الحرمان من الجنة.. ذلك أن المتكبر يعتدي بتكبره على مقام الألوهية، ويظل مقيماً على عيوبه ورذائله، ولذلك ستنتهي به الحياة وما حصل خيراً يستحق به ثواباً، فيحرم الجنة، ومن حرم الجنة دخل النار.

وقد امتلأ القرآن الكريم بالآيات التي تقرر العذاب الشديد الذي خصصه الله تعالى للمتكبرين، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) (الأعراف)، وقال: وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60) (غافر)

ومثل ذلك وردت الأحاديث النبوية الكثيرة مخبرة عن الويلات الشديدة التي تنتظر المتكبرين جزاء وفاقا على تكبرهم، ففي الحديث قال : (يقول اللّه سبحانه: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري. من نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنّم)[1]

وقال : (احتجّت النّار والجنّة فقالت هذه: يدخلني الجبّارون والمتكبّرون. وقالت هذه: يدخلني الضّعفاء والمساكين. فقال اللّه عزّ وجلّ لهذه: (أنت عذابي أعذّب بك من أشاء) وقال لهذه: (أنت رحمتي أرحم بك من أشاء). ولكلّ واحدة منكما ملؤها)[2]

---

[1] رواه مسلم وابن ماجة واللفظ له.

[2] رواه البخاري ومسلم.

وقال : (من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر كبّه اللّه لوجهه في النّار)[1]

وقال: (ألا أخبركم بأهل الجنّة؟)، قالوا: بلى، قال : (كلّ ضعيف متضعّف، لو أقسم على اللّه لأبرّه)، ثمّ قال: (ألا أخبركم بأهل النّار؟) قالوا: بلى. قال: (كلّ عتلّ[2] جوّاظ[3] مستكبر)[4]

وقال: (إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلسا يوم القيامة الثّرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون)، قالوا: يا رسول اللّه قد علمنا الثّرثارون والمتشدّقون. فما المتفيهقون؟ قال: (المتكبّرون)[5]

وقال: (ثلاثة لا يكلّمهم اللّه يوم القيامة ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذّاب، وعائل مستكبر)[6]

وقال: (لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر). قال رجل: إنّ الرّجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: (إنّ اللّه جميل يحبّ الجمال. الكبر بطر الحقّ[7] وغمط النّاس[8] [9]

1() رواه أحمد والبيهقى من طريقه بإسناد صحيح.

2() العتل: الجافى الشديد الخصومة.

3() الجواظ: الجموع المنوع. وقيل المختال فى مشيته.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه الترمذى، وقال: هذا حديث حسن غريب.

6() رواه مسلم.

7() بطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا.

8() غمط الناس وغمصهم: احتقارهم.

9() رواه مسلم.

وقال: (من مات وهو بريء من الكبر، والغلول والـدّين دخـل الجنّة)[1]

وقال: (يحشر المتكبّرون يـوم القيامـة أمثـال الـذّرّ في صـور الرّجـال يغشـاهم الـذّلّ من كـلّ مكـان فيسـاقون إلى سـجن في جهنّم يسمّى بولس تعلـوهم نـار الأنيـار يسـقون من عصـارة أهـل النّار طينة الخبال)[2]

وقـال: (أربـع في أمّـتي من أمـر الجاهليّـة لا يـتركونهنّ[3]: الفخر في الأحساب، والطّعن في الأنساب، والاستسـقاء بـالنّجوم، والنّياحة)، وقال: (النّائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامـة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)[4]

وقال: (أربعة يبغضهم اللّه- عزّ وجلّ: البيّاع الحلّاف، والفقـير المختال، والشّيخ الزّاني، والإمام الجائر)[5]

وقال: (بينما رجل يتبختر. يمشي في برديه قد أعجبته نفسـه فخسف اللّه به الأرض. فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)[6]

وقـال: (لا يـزال الرّجـل يـذهب بنفسه[7] حتّى يكتب في الجبّارين، فيصيبه ما أصابهم)[8]

1() رواه أحمد والترمذى واللفظ له، وابن ماجـه، والحـاكم وقـال: هـذا حـديث صـحيح على شرط الشيخين.

2() رواه الترمذى، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

3() لا يتركونهن: أي كل الترك. إن تركته طائفة، فعلته أخرى.

4() رواه مسلم.

5() رواه النسائى وابن حبان.

6() رواه البخارى ومسلم.

7() يذهب بنفسه: أى يترفع ويتكبر.

8() رواه الترمذى وقال: حسن.

وقال: (تخرج عنق من النّار[1] يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق، يقول: إنّي وكّلت بثلاثة: بكلّ جبّار عنيد، وبكلّ من دعا مع اللّه إلها آخر، وبالمصوّرين)[2]

قال آخر: عرفنا هذه الثمرة، وعرفنا خطرها، وقد ملأتنا مخافة منها.. فهل هناك غيرها، فإن هناك من يخاف من الثمرات العاجلة أكثر من خوفه من الثمرات الآجلة؟

قال الآجري: أجل.. هناك ثمرات كثيرة عاجلة تثمرها ثمرة الكبر..

منها أن المتكبر يبتلى بقلة الأنصار والمحبين الذين قد يستعين بهم على دنياه.. ذلك أن القلوب جبلت على حب من ألان لها الجانب، وخفض لها الجناح، ونظر إليها من دون لا من علٍ، أما من ترفع عليها واحتقرها أو ازدراها ونال منها، فإنها تبغضه وتنفر منه، بل وتحاول الابتعاد عنه، وتكون العاقبة خواء ذات اليد من الأنصار من ناحية، ووقوع الفرقة والتمزق بين من هو نصير وظهير بالفعل من ناحية أخرى.

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى هذا الأثر، وهو يتحدث عن المنافقين فقال: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) (المنافقون)

ومنها حرمان المتكبر من العون الإلهي.. ذلك أن سنة الحق مضت أنه لا يعطى عونه وتأييده إلا لمن هضموا نفوسهم حتى استخرجوا حظ الشيطان منها، والمتكبرون قوم كبرت نفوسهم، ومن كانت هذه صفته، فلا حق له في عون أو تأييد إلهي، قال تعالى يشير إلى هذا: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) (آل عمران)

انظروا كيف ربط الله نصره للمؤمنين بحالهم التي كانوا

---

[1] عنق- بضمتين- أي قطعة من النار.

[2] رواه الترمذى واللفظ له وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ورواه الطبرانى بإسنادين رواة أحدهما رواة الصحيح.

عليها من المسكنة والتواضع وهضم النفس، وكأن هـذه الحـال إذا انعدمت أو غابت غاب معها العون والتأييد.

قال آخر: وعينا كل هذا.. فحدثنا عن الترياق الـذي نـداوي بـه هذا الداء، ونتخلص به من هذه البذرة الخبيثة.

قال الآجري: انظروا في أخبار المتكبرين، كيـف كـانوا؟ وإلى أي شـئ صـاروا؟.. ابحثـوا عن أخبـار النمـرود وفرعـون وهامـان وقـارون وأبى جهـل وأبى بن خلـف وسـائر الطغـاة والجبـارين والمجرمين، في كل العصور والبيئات، فإن ذلك مما يخوف النفس ويحملها على التوبة والإقلاع، خشـية أن تصـير إلى نفس المصـير، وكتاب الله تعالى وسنة النـبي وكتب الـتراجم والتـاريخ خـير مـا يعينكم على ذلك.

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من علاج غيره؟

قال الآجري: ذكروا نفوسكم بـالعواقب والآثـار المترتبـة على التكبر، فلعل هذا التذكير يحرك نفوسكم من داخلها، ويحملها على أن تتوب، وتتدارك أمرها قبل ضياع العمر وفوات الأوان.

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من علاج غيره؟

قال الآجري: عـودوا المرضـى، وشـاهدوا المحتضـرين وأهـل البلاء، وشـيعوا الجنـائز وزوروا القبـور، فلعـل ذلـك يحـرككم من داخلكم، ويعيدكم إلى الإخبات والتواضع.

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من علاج غيره؟

قال الآجري: انسلخوا من صحبة المتكبرين، وصـاحبوا بـدلهم المتواضعين المخبـتين، فربمـا تعكس هـذه الصـحبة بمـرور الأيـام شعاعها عليكم، وقد كان من سنة رسول اللـه مجالسـة ضـعاف الناس وفقرائهم، وذوى العاهات منهم، بل ومؤاكلتهم ومشاربتهم.

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من علاج غيره؟

قال الآجري: تفكروا في النفس، وفي الكون، وفي كل النعم الـتي تحيـط بـه من أعلاه إلى أدنـاه، مَن مصـدر ذلـك كلـه ومن

ممسكه، وبأي شئ استحقه العباد، وكيف تكون حاله لو سلبت منه نعمة واحدة فضلاً عن باقي النعم.. فإن ذلك التفكر سيحرك النفس لا محالة ويجعلها تشعر بخطر ما هي فيه، إن لم تبادر بالتوبة والرجوع إلى ربها.

واستعينوا على هذا التفكر بحضور مجالس العلم التي يقوم عليها علماء ثقات نابهون، لاسيما مجالس التذكير والتزكية، فإن هذه المجالس لا تزال بالقلوب حتى ترق وتلين وتعود إليها الحياة من جديد.

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من علاج غيره؟

قال الآجري: احملوا النفس على ممارسة بعض الأعمال التي يتأفف منها كثير من الناس ممارسة ذاتية ما دامت مشروعة، كأن يقوم المتكبر بشراء طعامه وشرابه وسائر ما يلزمه بنفسه، ويحرص على حمله و المشي به بين الناس، حتى لو كان له خادم، على نحو ما كان يصنع النبي ﷺ، فإن هذا يساعد كثيراً في تهذيب النفس وتأديبها، والرجوع بها إلى سيرتها الأولى الفطرية، بعيداً عن أي التواء أو اعوجاج.

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من علاج غيره؟

قال الآجري: اعتذروا لمن تطاولتم عليه بسخرية أو استهزاء، بل ضعوا خدودكم على التراب عساه يعفو عنكم.. اصنعوا ما صنع أبو ذر مع بلال لما عاب عليه النبي ﷺ تعييره بسواد أمه.

***

بقينا مع الآجري أياما معدودات يعلمنا فيها أمراض الأنا، ويستعمل في التنفير عنها كل ما آتاه الله من العلم والحكمة.. وبعد أن رأى أن المحيطين به قد فقهوا عنه ما أراد أن يبلغهم إياهم ويدربهم عليه، طلب منهم أن يسيروا للقسم الثالث.

ثالثا ـ الشحناء

بعد أن انتهينا من الدراسة في القسم الثـاني، وبعـد أن رأيت تأثير التعاليم التي بثها الآجـري في نفـوس السـامعين، سـرت مـع أهل السوق إلى القسم الثالث، وكان اسمه (قسم الشحناء)، وقد عرفنا أن شيخه هو علي بن الحسـين المسـعودي[1].. وعلمنـا أن له كزملائه من العلماء من المصنفات ما أثبت به تضلعه في علوم الأخلاق، وقد أضاف إلى ذلك علمه بالتاريخ وأحوال الأمم ومـا مـر بهـا من قـوة وضـعف.. وقـد رشـحه كـل ذلـك لأن يتـولى رئاسـة التدريس في هذا القسم الخطير من هذه المدرسة.

بعد أن دخلنا القسـم تعجبنـا من تلـك المعاملـة الطيبـة الـتي قابلنا بها المسعودي حتى أن أحدنا قال له: لقد ظلمك من وضعك في هذا القسم.. فـأنت أسـتاذ في الحب والمـودة لا في الشـحناء والبغضاء.

ابتســم المســعودي، وقــال: لا يعــرف الحب والمــودة ولا يقـدرهما حـق قـدرهما إلا من عـرف الشـحناء والبغضـاء وصـلي بنارهما.. وأنا قد اخترت هذا القسم لأني جلت البلاد، وطفت دفاتر المؤرخين، وبحثت عن أسرار الصراع، فوجدتها جميعـا تنطلـق من جمرة الشـحناء الـتي لا تعـرف إلا الإحـراق، وأول مـا تبـدأ بـه في إحراقها قلوب أصحابها.

---

[1] () أشير به إلى علي بن الحسين بن علي المسعودي، أبو الحسن الهُذَلي، البغـدادي (235 ـ 346هـ) المؤرخ الكبير، خرج سنة (301هـ) من بغداد، وقام برحلـةٍ واسـعة، طـاف بهـا في البلاد النائية المختلفة واهتمّ بدراسة أحوال الاُمم، وعقائدها، وعاداتها، ومواطنها.

وكان مؤرخاً بارعاً، وجغرافيّاً ماهراً، وفقيهاً مُفتياً أُصولياً، ومتكلّماً عارفاً بالفلسفة.. وكان لــه اضطلاعٌ في الاَدب وعلم النجوم والاَخلاق والسياسة والاَنسـاب، كمـا ينمّ عن ذلـك مصـنّفاته الكثيرة المتنوعة.

من مصنّفاته: مروج الذهب ومعادن الجوهر والإشراف، الواجب في الفروض اللــوازب، نظم الاَدلّة في أُصول الملّة، الزاهي في أُصول الدين، المقـالات في أُصـول الـديانات، الاستبصـار في الإمامة، والهداية إلى تحقيق الولاية، والإبانة في أُصول الديانة، والاَدعية، وطبّ النفوس، وسرّالحياة في الاَخلاق، والفهرست في الرجال، وذخائر العلوم وما كان في سـالف الـدهور، وأخبار الاُمم من العرب والعجم، وفنون المعارف وما جـرى في الـدهور السـوالف، وحـدائق الاَذهان في ذكر آل محمّد وتفرّقهم في البلدان، وغير ذلك.

قلنا متعجبين: قلوب أصحابها!؟

قال المسعودي: أجل.. فما الحريق الخارجي إلا شعلة من ذلك الحريق الداخلي.

قلنا: لقد ملأتنا بالعجب.. فحدثنا عن أسرار هذه الحرائق، وعن مشعلها في قلوب أصحابها.

قال المسعودي: لقد عرفتم طغيان الأنا وعتوها.. وعرفتم أن الأناني لا يبصر إلا نفسه، ولا يحب أن يبصر إلا نفسه.

قلنا: لقد تعلمنا علوم ذلك من الآجري.

قال: فذلك الطغيان الذي تمتلئ به الأنا يوقد نار الشحناء في قلب صاحبها.. فلذلك تراه لا يريد الخير إلا له.. فإن أبصر خيرا في غيره راح يشعل فيه نيران قلبه.. وعندما تشتعل النار تبدأ بقلب صاحبها.

قلنا: نراك تومئ إلى الحسد والحقد.

قال: أجل.. فالحسد والحقد هي النيران التي تريد أن تلتهم الحياة.. ولكنها في عتوها لا تلتهم إلا قلب صاحبها.

قلنا: فلم لم يسم هذا القسم باسم الحقد والحسد؟

قال: لأن الحسد والحقد ثمرتان من ثمار البغض، وشعلتان من ناره.. فالقلب الممتلئ بالشحناء والبغضاء هو الذي يوحي لصاحبه بآيات الحقد والحسد..

لقد رأيت النصوص المقدسة تنص على ذلك في مواضع كثيرة، وكأنها تدلنا على البحث عن المنبع الذي تنبع منه الآثام.. فلا يمكن أن تعالج الآثام إلا من منابعها.

اسمعوا إلى الله تعالى، وهو يحذر أولياءه من قلوب أعدائهم الممتلئة بالبغض، قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْقِلُــونَ (118) هــا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُــونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَـوْا عَضُّـوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِـلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُـوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِـذاتِ الصُّـدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَـنَةٌ تَسُـؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكُمْ سَـيِّئَةٌ يَفْرَحُـوا بِهـا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُـونَ مُحِيـطٌ (120) (آل عمران)

وأخبر عن سر الفرقة بين أتباع الملل، فقال مشيرا إلى ذلك بحال النصارى: وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُـوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (14) (المائدة)

وقال مشيرا إلى ذلك بحـال اليهـود: وَقـالَتِ الْيَهُـودُ يَـدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُـوا بِمـا قـالُوا بَـلْ يَـداهُ مَبْسُـوطَتانِ يُنْفِـقُ كَيْـفَ يَشـاءُ وَلَيَزِيـدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مـا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيانـاً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَـدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْـعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسـاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) (المائدة)

وذكر أن من العلل التي حرمت بسـببها بعض المحرمـات هي ما تبثه في قلوب أصحابها من بغضاء، وهو يدل على أن سد منافذ البغضاء مقصـد مهم من مقاصـد الشـريعة، قـال تعـالى: يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِـرُ وَالْأَنْصـابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّما يُرِيـدُ الشَّـيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُـدَّكُمْ عَنْ ذِكْــرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّــلاةِ فَهَــلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُــونَ (91) وَأَطِيعُــوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَـوَلَّيْتُمْ فَـاعْلَمُوا أَنَّمـا عَلى رَسُـولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (92) (المائدة)

ولهـذا، فقـد ورد في التوجيهـات النبويـة الكثـيرة النهي عن البغض، وكل ما يترتب عليه، أو يوصـل إليـه، قـال : (لا تباغضـوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحـلّ لمسـلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيّام)[1]

[1] رواه أحمد والبزار وأبو يعلى في الكبير.

وقال: (إذا فتحت عليكم فارس والرّوم، أيّ قـوم أنتم؟) قـال عبد الرّحمن بن عوف: نقول كما أمرنا اللّه(1). قال رسول اللّه ﷺ: (أو غير ذلك تتنافسون، ثمّ تتحاسدون، ثمّ تتدابرون، ثمّ تتباغضون، أو نحـو ذلـك، ثمّ تنطلقـون في مسـاكين المهـاجرين فتجعلـون بعضهم على رقاب بعض)(2)

وقال: (دبّ إليكم داء الأمم: الحسد والبغضاء. هي الحالقة. لا أقـول: تحلـق الشّـعر، ولكن تحلـق الـدّين، والّـذي نفسـي بيـده لا تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنـوا، ولا تؤمنـوا حتّى تحـابّوا، أفلا أنبّئكم بمـا يثبت ذاكم لكم؟ أفشوا السّلام بينكم)(3)

وقال: (سيصيب أمّتي داء الأمم، فقالوا: يـا رسـول اللّـه ومـا داء الأمم؟ قال: (الأشر والبطر والتّكـاثر والتّنـاجش(4) في الـدّنيا والتّباغض والتّحاسد حتّى يكون البغي)(5)

وقال: (والّذي نفسي بيده لا تـدخلوا الجنّـة حتّى تسـلموا، ولا تسلموا حتّى تحابّوا، وأفشوا السّلام تحابّوا، وإيّاكم والبغضة، فإنّهـا هي الحالقة، لا أقول لكم تحلق الشّعر، ولكن تحلق الدّين)(6)

الحسد:

قلنا: عرفنا أصل النـار، فحـدثنا عن فرعهـا الأول.. حـدثنا عن الحسد(7)، وحدثنا عن الحسود.

---

(1) نقول كما أمرنا اللّه: معناه نحمده ونشكره، ونسأله المزيد من فضله.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه الترمذي والبزار والبيهقي وغيرهم.

(4) الأشر: المرح وقيل: هو البطر، والبطر: هو الطغيان في النعمة، والتناجش هـو أن يزيـد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها.

(5) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(6) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة في الأدب.

(7) عرفـه الجرجـانيّ بقولـه: (الحسـد تمنّي زوال نعمـة المحسـود إلى الحاسـد)، وقـال الجاحظ: (الحسد: هو التألّم بما يراه الإنسان لغيره وما يجده فيه من الفضائل، والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له، وهـو خلـق مكـروه وقـبيح بكـلّ أحـد)، وقـال المـاورديّ: (حقيقـة

قال: الحسد هو النار التي تختصـر هـدف صـاحبها في الحيـاة في أن يرى النعم تسلب، والبلايا تنزل.

والحسود هو المـريض الـذي لا يحب أن يـرى غـير المرضـى، والمبتلى الذي لا يحب أن يرى إلا أهل البلاء.

وهو الذي لا ينـال من المجـالس إلّا مذمّـة وذلّا، ولا ينـال من الملائكة إلّا لعنة وبغضا، ولا ينال من الخلق إلّا جزعا وغمّا، ولا ينال عند النزع إلّا شدّة وهولا، ولا ينال عند الموقف إلّا فضيحة ونكالا.

وهـو الظـالم الـذي يشـبه المظلـومين.. فهـو في نفس دائم، وهمّ لازم، وقلب هائم.

وهو الذي وصفه الشاعر، فقال:

إنّ الحسود الظّلوم في كرب ... يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دائم على نفـــــس ... يظهر منها ما كان مكتوما

وهو الذي وصفه الآخر، فقال:

إنّي لأرحم حاسدي من حرّ ما ... ضمّت صدورهم من الأوغار
نظروا صنيع اللّه بي فعيونهـم ... في جنّة وقلوبهم في النـــــار

قال رجل منا: عد بنا من الوصف إلى التحقيـق.. فمـا حقيقـة الحسد؟

التفت المسعودي إليه، وقال[1]: اعلم أن الحسد لا يكـون إلا على نعمـة، فـإذا أنعم اللـه على أخيـك بنعمـة فلـك فيهـا حالتـان:

الحسد: شدّة الأسى على الخيرات تكون للنّاس الأفاضـل)، وقـال المنـاويّ: (الحسـد: تمنّي زوال نعمة عن مستحقّ لها، وقيـل: هـو ظلم ذي النعمـة بتمنّي زوالهـا عنـه وصـيرورتها إلى الحاسد)، وقال الراغب: (الحسد تمنّي زوال نعمة من مستحقّ لها، وربّما كان مع ذلك سـعي في إزالتها)

[1] من (إحياء علوم الدين) بتصرف.

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهـذه الحالـة تسـمى حسـداً.. فالحسـد حـده (كراهـة النعمـة وحب زوالهـا عن المنعم عليه)

والحالة الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكـره وجودهـا ودوامهـا، ولكن تشتهي لنفسك مثلها.. وهذه تسمى غبطة، وقد تختص باسم المنافسة، بل قد تسمى حسدا.. ولا حرج في التسمية بهذا.. ففي الحديث قال رسول الله :(لا حسد إلّا في اثنتين: رجل آتـاه اللّـه مالا فسلّطه على هلكتـه في الحـقّ، ورجـل آتـاه اللّـه حكمـة فهـو يقضي بها ويعلّمها)[1]

قال الرجل: فالأولى هي الحسد؟

قال المسـعودي: أجـل.. وهـو حـرام بكـل حـال، إلا كراهيتـك لنعمة أصابها فاجر أو كافر ليستعين بها على تهييج الفتنـة وإفسـاد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لهـا ومحبتـك لزوالهـا، فإنــك لا تحب زوالهــا من حيث هي نعمــة بــل من حيث هي آلــة الفساد، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته.

قال آخـر: **إنا نـرى الحسـدة مختلفين**.. فمنهم من يحب زوال النعمة عن المحسـود، وإن كـان ذلـك لا ينتقـل إليـه.. ومنهم من يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة، مثـل رغبتـه في دار حسنة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه، ومكروهـه فقـد النعمـة لا تنعم غيره بهـا.. ومنهم من لا يشـتهي عين النعمـة لنفسـه بـل يشـتهي مثلها، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلاً يظهر التفـاوت بينهمـا.. ومنهم من يشـتهي لنفسـه مثـل النعمـة فـإن لم تحصـل فلا يحب زوالها عنه.

فهل لهؤلاء جميعا حكم واحد؟

قال المسعودي: معاذ الله.. فموازين الله العادلة تـأبى إلا أن تفرق بين الجرائم فلا تضع الكبيرة مع الصـغيرة، ولا تضـع الـدقيق مع الجليل.

---

[1] () رواه البخاري ومسلم.

قال الرجل: فما الفرق بين من ذكرت؟

قال المسعودي: أما الأخير، وهو من يشتهي لنفسه مثل النعمة فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عن المنعم عليه، فقد ذكرت لكم أنه أولى باسم المنافسة منه باسم الحسد، وهو معفو عنه في شؤون الدنيا، ومندوب إليه في شؤون الدين.

وأما الأول، فهو أخبثهم، وهو الحاسد الحقيقي، والثالث مذموم وغير مذموم، والثاني أخف من الثالث.

قال آخر(2): فما **الوقود الذي يمد نار الحسد بما يشعلها أو يزيدها اشتعالا**؟

قال المسعودي: سبعة من حطب جهنم النفوس هي التي توقد نيران الحسد في القلوب.

قال الرجل: فما **أولاها**؟

قال المسعودي: العداوة والبغضاء.. وهذا أشد وقود الحسد اشتعالا، فإن من آذاه شخص وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد.. والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فمهما أصابت عدوة بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه.

وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وغاية التقى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوي عند مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعني الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى :﴿.. وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119)﴾

2() رجعنا في التعرف على أسباب الحسد إلى الإحياء مع التصرف الذي ألفناه في هذه السلسلة.

(آل عمران)، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118)﴾ (آل عمران)، والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه.

قال الرجل: فما **الثانية**؟

قال المسعودي: التعزز.. وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره.. فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبر عليه، وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

قال الرجل: فما **الثالثة**؟

قال المسعودي: الكبر.. وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته، أو ربما يتشوف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه.. ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ كما حكى الله تعالى عنهم ذلك، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)﴾ (الزخرف)، وقال تعالى يصف قول قريش : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)﴾ (الأنعام)

قال الرجل: فما **الرابعة**؟

قال المسعودي: التعجب، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا لأنبيائهم :﴿.. مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15)﴾ (يس)، وقالوا: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47)﴾ (المؤمنون)، وقالوا :﴿.. مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ

مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَـرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِـرُونَ (34)﴾ (المؤمنون)

انظـروا كيـف تعجب هـؤلاء الجاحـدون من أن يفـوز برتبـة الرسالة والوحي والقرب من الله تعـالى بشـر مثلهم فحسـدوهم، وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم من هـو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب، بل قالوا متعجبين :﴿.. أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُـولًا (94)﴾ (الإسراء)

قال الرجل: فما **الخامسة**؟

قال المسـعودي: الخـوف من فـوت المقاصـد، وذلـك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كان واحـد يحسـد صـاحبه في كل نعمة تكون عوناً لـه في الانفـراد بمقصـوده، ومن هـذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الأخوة في الـتزاحم على نيـل المنزلـة في قلب الأبـوين للتوصـل بـه إلى مقاصد الكرامة والمال، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيـل المرتبـة من قلب الأسـتاذ، بـل كـذلك تحاسـد الـواعظين المتزاحمين على أهـل بلـدة واحـدة إذا كـان غرضـهما نيـل المـال بالقبول عندهم، وكذلك تحاسد العـالمين المـتزاحمين على طائفـة من المتفقهه محصـورين، إذ يطلب كـل واحـد منزلـة في قلـوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له.

قال الرجل: فما **السادسة**؟

قال المسعودي: حب الرياسة وطلب الجـاه لنفسـه من غـير توصـل إلى مقصـود.. وذلـك كالرجـل الـذي يريـد أن يكـون عـديم النظـير في فن من الفنـون إذا غلب عليـه حب الثنـاء واسـتفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنـه وأنـه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العـالم لسـاءه ذلـك وأحب موتـه أو زوال النعمـة عنـه الـتي بهـا يشـاركه المنزلـة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمـال أو ثـروة أو غـير ذلـك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده.

ومن هذا الباب أتي علماء اليهود الذين أنكروا معرفة رسـول الله ولم يؤمنوا به مخافة أن تبطل رياسـتهم واسـتتباعهم مهمـا نسخ علمهم.

قال الرجل: فما **السابعة**؟

قال المسعودي: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجـد من لا يشـتغل برياسـة وتكـبر ولا طلب مـال إذا وصـف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيمـا أنعم اللـه بـه عليـه يشق ذلك عليه، وإذا وصف لـه اضـطراب أمـور النـاس وإدبـارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح بـه، فهـو أبـداً يحب الإدبـار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخـذون ذلـك من ملكـه وخزانته.

وهـذا ليس لـه سـبب ظـاهر إلا خبث في النفس ورذالـة في الطبع عليـه وقعت الجبلـة، ومعالجتـه شـديدة لأن الحسـد الثـابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصـور زوالهـا فيطمـع في إزالتهـا، وهــذا خبث في الجبلــة لا عن ســبب عــارض فتعســر إزالتــه إذ يستحيل في العادة إزالته.

قال آخر: عرفنا الحطب الـذي يوقـد نـار الحسـد، فمـا المـاء الـذي يطفئ نـاره؟ ومـا **المـرهم الـذي يعـالج بـه المـريض المحترق بنار الحسد**؟

قال المسعودي: مراهم كثيرة..

قال الرجل: فاذكر لنا منها ما عسانا ننتفع به.

قال المسـعودي: **أولها** أن يوجـه الحسـد التوجيـه السـليم.. فتنتقل بالحسـد من حالتـه الأولى إلى حالتـه الثانيـة.. وتنتقـل من محبة زوال النعمة عن غيرك إلى محبـة أن تكـون لـك النعم الـتي تنزل على غيرك..

إن ذلك يجرك إلى المنافسـة والتسـابق والمسـارعة.. وكلهـا مما دعت النصوص المقدسة إليه، قال تعـالى : إِنَّ الْأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُـوهِهِمْ نَضْـرَةَ

النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) (المطففين)

انظروا كيف وجه القرآن المتنافسين إلى الوجهة الصحيحة التي لا يصح أن يتنافسوا إلا فيها.. لقد وردت هذه الآيات في سورة المطففين، وكأنها تقول لهم: وجهوا تنافسكم على الدنيا وتسارعكم إليها إلى ذلك النعيم المقيم الذي لا يتنعم به إلا المتقون.

وفي آية أخرى يعبر عن المنافسة بالسباق، قال تعالى : سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) (الحديد).. لقد وردت هذه الآية الكريمة عقب ذكر حقيقة الدنيا.. قال تعالى فيها : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) (الحديد)، وكأنها توجه المتحاسدين المستغرقين الدنيا إلى الوجهة الحقيقية التي لا يصح أن يوجه التنافس إلى غيرها.

وفي الحديث قال رسول الله :(إنّما الدّنيا لأربعة نفر: عبد رزقه اللّه مالا وعلما فهو يتّقي فيه ربّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم للّه فيه حقّا، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه اللّه علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النّيّة يقول: لو أنّ لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيّته فأجرهما سواء. وعبد رزقه اللّه مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتّقي فيه ربّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم للّه فيه حقّا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه اللّه مالا ولا علما فهو يقول: لو أنّ لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيّته، فوزرهما سواء)[1]

وفي الحديث أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ،

---

[1] رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح- وهذا لفظه - وابن ماجة.

فقـالوا : ذهب أهـل الـدثور[1] بالـدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال:(وما ذاك ؟)، فقـالوا : يصـلون كمـا نصـلي، ويصـومون كمـا نصوم، ويتصدقون ولا نتصـدق، ويعتقـون ولا نعتـق، فقـال رسـول الله :(أفلا أعلمكم شيئا تدركون بـه من سـبقكم، وتسـبقون بـه من بعـدكم، ولا يكـون أحـد أفضـل منكم إلا من صـنع مثـل مـا صنعتم؟)، قـالوا : بلى يـا رسـول اللـه، قـال: (تسـبحون وتكـبرون وتحمـدون، دبـر كـل صـلاة ثلاثـا وثلاثين مـرة)، فرجـع فقـراء المهاجرين إلى رسول الله ، فقالوا : سمع إخواننـا أهـل الأمـوال بما فعلنا، ففعلوا مثله؟ فقال رسول الله : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)[2]

قال آخر: عرفنا هذا.. **فهل من علاج غيره**؟

قال المسعودي: بما أن السبب الأكبر للحسـد هـو المزاحمـة على الدنيا.. فإن العلاج الأكبر للحسد هو الـترفع عن الـدنيا.. ذلـك أن الدنيا هي التي تضيق على المـتزاحمين، أمـا الآخـرة فلا ضـيق فيها، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفـة اللـه تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسـد غـيره إذا عـرف ذلـك أيضـاً، لأن المعرفـة لا تضـيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتـذ بـه، ولا تنقص لـذة واحـد بسـبب غـيره، بـل يحصـل بكـثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الاستفادة والإفادة.

فلـذلك لا يكـون بين علمـاء الـدين الصـادقين محاسـدة، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضـهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً فيما عنـد اللـه تعـالى لأن أجـل مـا عنــد اللــه ســبحانه من النعيم لــذة لقائــه وليس فيهــا ممانعــة ومزاحمـة، ولا يضـيق بعض النـاظرين على بعض بـل يزيـد الأنس بكثرتهم.

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المـال

---

[1] () الدثور: الأموال الكثيرة.

[2] () رواه البخاري ومسلم.

أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة: فيكون ذلك سبباً للمحاسدة، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وأن يفرح بذلك.

والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية، فلو ملك الإنسان جميع في الأرض لم يبق بعده مال يمتلكه غيره، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم، ولم يكن ممنوعاً منه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة، فإن نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته، يأمن زوالها وهو أبداً يجني ثمارها؛ فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية، فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47)﴾ (الحجر)، فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء، ومشاهدة المحبوب في العقبى؟ فإذن لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الدنيا في الجنة محاسدة، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً، فأهل الجنة بالضرورة برءاء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين.

قال آخر: وعينا هذا.. فهل **من علاج غيره**؟

قال المسعودي: العلم النافع.. فمن علم علم اليقين أن الحسد ضرر في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما.. مهما عرف هذا عن بصيرة فارق الحسد لا محالة.

قال الرجل: فسر لي هذا.. فكيف يكون الحسد ضررا علي في الدين والدينا؟

قال المسعودي: أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته.. وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين. وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم.. وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وتمحوها كما يمحو الليل النهار.

وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عليهم، فتبقى مغموماً محروماً متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقداً، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك.

قال الرجل: وعيت هذا.. ولكن كيف ينتفع المحسود بحسدي له في الدنيا والدين؟

قال المسعودي: أما منفعته في الدين: فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكره مساويه، فهذه هدايا تهديها إليه؛ أي أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً

محروماً عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة، فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل. نعم كان عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة.

وأما منفعته في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد، وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسداً. ولذلك قيل:

لا مات أعداؤك بل خلدوا ... حتى يروا فيك الذي يكمد

لا زلت محسوداً على نعمة ... فإنما الكامل من يحسد

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من **علاج غيره**؟

قال المسعودي: العمل النافع..

قال الرجل: ما مرادك بذلك؟

قال المسعودي: أنتم تعلمون أن الحسد يكلف صاحبه أقوالا وأفعالا..

قال الرجل: أجل.. وإلا لما عرفنا حسد الحسود.

قال المسعودي: فالعمل النافع بناء على هذا هو أن الحاسد يكلف نفسه نقيض ما تطلبه نفسه من الأعمال، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه.. وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه.. وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه، وتولد من ذلك الموافقة التي

تقطع مادة الحسد، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصبر ما تكلفه أولاً: طبعاً آخر ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له: لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة - تكلفاً كانت أو طبعاً - تكسر سورة العداوة من الجانبي وتقل مرغوبها وتعود القلب التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض.

قال الرجل: ما أجل هذا الدواء.. ولكني أراه شديد المرارة.

قال المسعودي: نعم هو مر.. ولكن النفع في الدواء المر.. فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينقل حلاوة الشفاء.

قال الرجل: فهل تدلنا على ما يخفف مرارته؟

قال المسعودي: إنما تهون مرارة هذا الدواء بقوة العلم وبقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه.

الحقد:

قلنا: عرفنا الفرع الأول، فحدثنا عن الفرع الثاني.. حدثنا عن **الحقد**(1).

قال: الحقد جمرة من جمر الغضب.. فالغضب إذا لزم كظمه لعجز صاحبه عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً.

قال الرجل: عرفنا وقوده، فما نيرانه التي تفيض عنه؟

قال المسعودي: سأذكر لكم سبعة منها.

1() عرفه الجرجانيّ بقوله: الحقد: هو طلب الانتقام، وتحقيقه: أنّ الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفّي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا، وقيل: هو سوء الظنّ في القلب على الخلائق لأجل العداوة (التعريفات ص 95)

قال الرجل: فما أولها.

قال المسعودي: الحسد.. فالحقد يحملك على أن تتمنى زوال النعمة عن المحقود عليه، فتغتم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن نزلت به.

قال الرجل: فما الثانية؟

قال المسعودي: أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

قال الرجل: فما الثالثة؟

قال المسعودي: أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

قال الرجل: فما الرابعة؟

قال المسعودي: أن تعرض عنه استصغاراً له.

قال الرجل: فما الخامسة؟

قال المسعودي: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره.

قال الرجل: فما السادسة؟

قال المسعودي: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

قال الرجل: فما السابعة؟

قال المسعودي: أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة. وكل ذلك حرام.

قال الرجل: أرى أن الحقد هو أم البلايا.. وهو كالحسد نار تأكل صاحبها قبل أن تصل إلى غيره، بل قد لا تصل إلى غيره.

قال المسعودي: أجل.. فليس أروح للمرء، ولا أطرد لهمومه، ولا أقرّ لعينه من أن يعيش سليم القلب، مبرّأ من وساوس

الضغينة، وثوران الأحقـاد، إذا رأى نعمـة تنسـاق لأحـد رضـي بهـا، وأحسّ فضل اللّه فيها، وفقر عباده إليها، وإذا رأى أذى يلحق أحدا من خلق اللّه رثى له، ورجا اللّه أن يفرّج كربه ويغفر ذنبه، وبـذلك يحيا ناصع الصفحة، راضيا عن اللّـه وعن الحيـاة، مسـتريح النفس من نزعـات الحقـد الأعمى، ذلـك أنّ فسـاد القلب بالضّـغائن داء عضال، وما أسرع أن يتسرّب الإيمان من القلب المغشـوش، كمـا يتسرّب السائل من الإناء المثلوم.

ثم سكت قليلا، ثم قال: إنّ الشيطان ربّما عجز أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم، ولكنّه- وهو الحريص على إغواء الإنسان وإيراده المهالك لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربّـه، حتّى يجهـل حقوقه أشدّ ممّا يجهلها الوثنيّ المخرّف، وهو يحتـال لـذلك بإيقـاد نار العداوة في القلوب، فـإذا اشـتعلت اسـتمتع الشـيطان برؤيتهـا وهي تحرق حاضر الناس ومسـتقبلهم، وتلتهم علائقهم وفضـائلهم، ذلـك أنّ الشـرّ إذا تمكّن من الأفئـدة الحاقـدة تنـافر ودّهـا وارتـدّ الناس إلى حال من القسوة والعناد، يقطعون فيها ما أمر اللّـه بـه أن يوصل، ويفسدون في الأرض.

إنّ الحقد هو المصـدر الـدفين لكثـير من الرذائـل الّـتي رهّب منها الإسلام، فالافتراء على الأبرياء جريمة يدفع إليها الحقـد، وقـد عـدّها الإسـلام من أقبح الـزور، أمّـا الغيبـة فهي متنفّس حقـد مكظوم، وصدر فقير إلى الرحمة والصفاء، ومن لوازم الحقد سوء الظنّ وتتبّع العورات، واللمز، وتعيير الناس بعاهاتهم، أو خصائصهم البدنيّة أو النفسيّة، وقد كره الإسلام ذلك كلّه كراهية شديدة.

إنّ جمهور الحاقدين تغلي مراجـل الحقـد في أنفسـهم، لأنّهم ينظرون إلى الدنيا فيجدون ما تمنّوه لأنفسهم قـد فـاتهم، وامتلأت به أكفّ أخرى، وهذه هي الطامّة الّتي لا تدع لهم قرارا، وهم بذلك يكونون خلفاء إبليس- الّذي رأى أنّ الحظوة الّتي كان يتشهّاها قـد ذهبت إلى آدم- فآلى ألّا يترك أحدا يستمتع بها بعدما حرمها، وهـذا الغليان الشيطانيّ هو الّذي يضطرم في نفوس الحاقـدين ويفسـد قلوبهم، فيصبحون واهني العزم، كليلي اليد، وكـان الأجـدر بهم أن يتحوّلوا إلى ربّهم يسألونه من فضله، وأن يجتهـدوا حتّى ينـالوا مـا

ناله غيرهم، إذ خزائنه سبحانه ليست حكرا على أحد، والتطلّع إلى فضل اللّه عزّ وجلّ مع الأخذ بالأسباب هي العمل الوحيد المشروع عند ما يرى أحد فضل اللّه ينزل بشخص معيّن، وشتّان ما بين الحسد والغبطة أو بين الطموح والحقد(1).

قال آخر: عرفنا نيران الحقد، بل رأيناها بأم أعيننا، ونحن نبحث عن الماء الذي يطفئها.

قال المسعودي: لا يمكن أن تطفأ النار، ومنبع النار يبعث بلهبه.

قال الرجل: فما منبع النار؟ وكيف نطفئه؟

قال المسعودي: لايمكن أن تطفئوا نيران الغضب ما لم تمنعوا الوقود عنه.

قال الرجل: فما الوقود الذي يهيج الغضب؟

قال المسعودي: وقود الغضب كثير.. منه الزهور والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه.. وهي جميعا أخلاق مذمومة ولا خلاص من الغضب مع بقائها.

قال الرجل: فكيف نقتل نار الشر التي تنبع منها؟

قال المسعودي: تستطيع أن تميت الزهو بالتواضع.. وتميت العجب بمعرفتك بنفسك.. وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك، إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد؛ وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتاً فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة؟

وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك.

1() انظر: خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص 90- 102..

وأما الهزء فتزيله بـالتكرم عن إيـذاء النـاس وبصـيانة النفس عن أن يستهزأ بك.

وأما التعيير فالحذر عن القول القبيح وصـيانة النفس عن مـر الجواب.

وأما شدة الحـرص على مزايـا العيش فـتزال بالقناعـة بقـدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة.

قال الرجل: فكيف نستعمل هذه الوصفات؟

قال المسعودي: بالرياضة والمجاهـدة.. فكـل خلـق من هـذه الأخلاق وصـفة من هـذه الصـفات يفتقـر في علاجـه إلى رياضـة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفـة غوائلهـا لـترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشـرة أضـدادها مدة حتى تصير مألوفة هينة على النفس، فـإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصـت عن الغضـب الـذي يتولد منها[1].

قـال آخـر: لقـد عرفنـا علاج أصـل الـداء.. **فهـل من دواء مهدئ للغضب في حال ثورانه**؟

قال المسعودي: **ستة علـوم إن علمهـا الغاضـب قتلت غضبه في مهده، وأطفأت ناره قبل أن تحرقه**.

قال الرجل: فما **أولها**؟

قال المسعودي: أن يتفكر في الأخبار الورادة في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابـه، فتمنعـه شـدة الحـرص على ثـواب الكظم عن التشـفي والانتقـام وينطفئ عنـه غيظه قـال مالـك بن أوس ابن الحـدثان: غضـب عمـر على رجـل وأمر بضربه فقلت: يا أمير المؤمنين : ﴿ خُـذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199)﴾ (الأعراف)، فكان عمر يقول:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَنِ الْجَـاهِلِينَ (199)﴾ (الأعـراف)، فكان يتأمل في الآية، وكان وقافاً عند كتاب الله.. ومثل ذلـك أمـر

[1] () انظر التفاصيل المرتبطة بكيفية الرياضة في هذه السلسلة في محال مختلفة.

عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى : وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْــظَ وَالْعَــافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِــنِينَ (134) (آل عمران)، فقال لغلامه: خل عنه.

قال الرجل: فما **الثاني**؟

قال المسعودي: أن يخوف نفسه بعقاب اللــه وهــو أن يقــول في نفسه: (قدرة الله على أعظم من قــدرتي على هــذا الإنســان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضــي اللــه غضــبه علي يــوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو، فقد قال تعــالى في بعض الكتب القديمة: يا ابن آدم اذكــرني حين تغضــب أذكــرك حين أغضــب فلا أمحقك فيمن أمحــق، وقيــل: مــا كــان في بــني إســرائيل ملــك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها: ارحم المســكين واخش الموت واذكر الآخرة، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه)

قال الرجل: فما **الثا**لث؟

قــال المســعودي: أن يحــذر نفســه عاقبــة العــداوة والانتقــام وتشــمر العــدو لمقابلتــه والســعي في هــدم أغراضــه والشــماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضــب في الدنيا إن كان لا يخــاف من الآخــرة.. وهــذا يرجــع إلى تســليط شهوة على غضب، وليس هذا من أعمــال الآخــرة ولا ثــواب عليــه، لأنه متردد على حظوظــه العاجلــة يقــدم بعضــها على بعض، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليــه في الــدنيا فراغتــه للعلم والعمــل وما يعينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه.

قال الرجل: فما **الرابع**؟

قال المسعودي: أن يتفكر في قبح صورته عنــد الغضــب بــأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكــر في قبح الغضــب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والســبع العــادي، ومشــابهة الحليم الهادئ التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلمــاء والحكمــاء، ويخير نفسه بين أن يتشــبه بــالكلاب والســباع وأرذال النــاس وبين أن يتشــبه بالعلمــاء والأنبيــاء في عــادتهم لتميــل نفســه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل.

قال الرجل: فما **الخامس**؟

قال المسعودي: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الإنتقام ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس! فيقول لنفسه: ما أعجبك! تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك؟ وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين؟ فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله، فما له وللناس؟ وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله له انتقم الآن، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة: ليقم من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يكرره على قلبه.

قال الرجل: فما **السادس**؟

قال المسعودي: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده، فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

***

بقينا مع المسعودي أياما معدودات يعلمنا فيها أمراض الشحناء، ويستعمل في التنفير عنها كل ما آتاه الله من العلم والحكمة.. وبعد أن رأى أن المحيطين به قد فقهوا عنه ما أراد أن يبلغهم إياهم ويدربهم عليه، طلب منهم أن يسيروا للقسم الرابع.

رابعا ـ اللؤم

بعد أن انتهينا من الدراسة في القسم الثالث، وبعــد أن رأيت تأثير التعاليم التي بثها المسعودي في نفوس السامعين، سرت مع أهل السوق إلى القسم الرابع، وكـان اسـمه (قسـم اللـؤم)، وقـد عرفنـا أن شـيخه هـو أبـو عبـد اللّـه الحليمي[1].. وقـد عرفنـا أنـه كأصحابه من الأساتذة عالم من علماء الأخلاق، وعلمنـا أنـه صـنف فيه كتابه (المنهاج في شعب الإيمان)، وقد ذكر أنـه دعـاه لتأليفـه ما رآه من اشتغال جمهور النـاس عن العلـوم بالتوسـع في الأهـل والمال، والتهافت في الحـرام والحلال والتنـافس في رتب الـدنيا، والتغافل عن درج الآخرة.. واعتبر أن منبع ذلك كل هو لؤم النفس وخستها.. وقد رشحه هذا الاكتشاف لأن يؤهـل للتـدريس في هـذا القسم.

عنـدما دخلنـا القسـم اسـتقبلنا بقولـه: أهلا بأصـحاب الهمم العالية ممن ترقوا عن درك البهيمية متطلعين إلى حقيقة الإنسـان السامية.

قلنا: من العجب أن يختـار مثلـك اللـؤم علمـا يعلمـه، وقسـم يدرس فيه؟

قال: إنما اخترت هذا القسم نصحا لعباد اللـه.. فقـد رأيت أن العائق الأكبر المانع من كل كمال هو اللؤم والخسة وصـغر النفس وحقارتها.. وقد آليت على نفسي أن أحذر منه ما حييت.

لقد وجـدت الكـل مطبقـا على لـوم اللـئيم، فرسـول اللـه أفصح الفصحاء، وأحكم الحكماء، اعتبر اللؤم صـفة الفـاجر، فقـال : (المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم)[2]

وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الّـذي لا ينـدمل، قـال: حاجـة

---

[1] () أشير به الحسين بن الحسن بن حليم، أبو عبد اللّه الحليمي، الشـافعي (338 ـ 403 هـ) ولد بجرجان، ونشـأ ببخـارى، وولي القضـاء، تقـدّم في المـذهب حـتى صـار شـيخ الشافعية بما وراء النهر.

[2] () رواه أبو داود والترمذي وغيرهما.

الكريم إلى اللّئيم، ثمّ يردّه بغير قضائها، قيل: فما الّذي هو أشدّ منه، قال: وقوف الشّريف بباب الدّنيء ثمّ لا يؤذن له.

وقال الشّاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

وقال آخر:

أحبّ بنيّتي ووددت أنّي دفنت بنيّتي في جوف لحد
ومالي بغضها غرضا ولكن مخافة ميتتي فتضيع بعدي
مخافة أن تصير إلى لئيم فيفضح والدي ويشين جدّي

قلنا: فما اللؤم[1]؟.. ولم كان بهذه الصورة؟

قال: اللؤم هو نزول الإنسان من المحل الرفيع الذي أقامه الله فيه إلى أسفل سافلين، فبدل أن يرقى بهمته إلى المعالي ينزل بها إلى المنحدرات، ثم هو في نزوله لا يقع إلا على الخنافس والجرذان، ولا يجد رفيقا له إلا الخنازير والسباع.

قلنا: لقد ملأت نفوسنا تقززا، فهلا فصلت لنا مظاهر اللؤم التي بها يظهر، والألوان التي لها يلبس.

قال: هي كثيرة.. فلا تستطيع هذه المدرسة بكل من فيها وبكل ما فيها أن تحصي خلال اللئيم، فهو يتلون كما تتلون الحرباء.

قلنا: فاذكر لنا بعضها.. لنستدل بما تذكره على ما لم تذكره.

الفحش:

[1] () اللّؤم: شحّ النّفس ودناءة الأصل، وهو مأخوذ من مادّة (ل أم) الّتي تدلّ على ذلك، يقول ابن فارس: (اللّام والألف والميم أصلان: أحدهما: الاتّفاق والاجتماع والآخر: خلق رديء، فمن الثّاني: اللّؤم: يقولون: إنّ اللّئيم الشّحيح المهين النّفس الدّنيّ الأصل (المقاييس:5/ 226)

قال: من المظاهر التي يظهر بها اللئيم الفحش.. فاللئيم لا تجدونه إلا فاحشا مقيتا.

قلنا: من الفاحش المقيت؟

قال: هو ذو الفحش والخنا من القول، الّذي يتكلّف سبّ النّاس ويتعمّده.. ويجعل ذلك وسيلته للسيطرة عليهم.

قلنا: بئس الرجل هو.

قال: ولذلك وردت النصوص بتحذير المؤمنين منه، وببيان العقاب الذي أحله الله به لتملأ النفوس رهبة من سلوك سبيله، ففي الحديث أن رجلا استأذن على رسول اللّه فقال: (ائذنوا له، بئس أخو العشيرة)، فلمّا دخل ألان له الكلام. قلت: يا رسول اللّه، قلت الّذي قلت ثمّ ألنت له الكلام. قال: (إنّ شرّ النّاس من تركه النّاس اتّقاء فحشه)[1]

وروي أنّ يهود أتوا النّبيّ فقالوا: السّام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم اللّه، وغضب اللّه عليكم. قال: (مهلا يا عائشة، عليك بالرّفق، وإيّاك والعنف والفحش) قالت: أو لم تسمع ما قالوا. قال: (أو لم تسمعي ما قلت، رددت عليهم فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيّ)[2]

وروي أنه قسم قسما، فقيل له: واللّه يا رسول اللّه لغير هؤلاء كان أحقّ به منهم، قال: (إنّهم خيّروني أن يسألوني بالفحش أو يبخّلوني، فلست بباخل)[3]

وفي حديث آخر قال: (الظّلم ظلمات يوم القيامة، وإيّاكم والفحش، فإنّ اللّه لا يحبّ الفحش ولا التّفحّش، وإيّاكم والشّحّ، فإنّ الشّحّ أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا،

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه مسلم.

وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا..)[1]

وقال ﷺ: (ليس أحد أحبّ إليه المدح من اللّه- عزّ وجـلّ-، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من اللّه، من أجل ذلك حرّم الفواحش..)[2]

وقال: (ليس المؤمن بالطّعّـان، ولا اللّعّـان، ولا الفـاحش، ولا البذيء)[3]

وقال: (ما كان الفحش في شيء إلّا شـانه، ومـا كـان الحيـاء في شيء إلّا زانه)[4]

وقال: (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنّة، والبـذاء[5] من الجفاء، والجفاء في النّار)[6]

البذاءة:

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا صفة أخرى من صفات اللئيم.

قال: من صفات اللئيم البذاءة[7].

قلنا: ما البذاءة؟

قال: هي تلك التي نهى الله عنها، فقال: ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَـوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكـانَ اللَّهُ سَـمِيعاً عَلِيمـاً (148)﴾ (النساء)

1() رواه أبو داود وأحمد.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

4() رواه الترمذى وقال حديث حسن، وابن ماجة.

5() البذاء: الفحش في الكلام.

6() رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

7() عرفها الغزاليّ بقوله: (هي التّعبير عن الأمـور المسـتقبحة بالعبـارات الصّـريحة)، وقـال المناويّ: (البذاء هو الفحش والقبح في المنطق، وإن كان الكلام صدقا)

وعاتب عتابا شديدا من وقع فيها فقال: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (16) (النور)

واعتبر أهلها من المنافقين، فقال: أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (19) (الأحزاب)، وقال: إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) (الممتحنة)

وحذر رسول الله من الوقوع فيها، فقال: (إنّ أنسابكم هذه ليست بسباب على أحد، وإنّما أنتم ولد آدم، طفّ الصّاع لم تملؤوه، ليس لأحد فضل إلّا بالدّين أو عمل صالح. حسب الرّجل أن يكون فاحشا بذيّا بخيلا جبانا)[1]

واعتبرها من اللؤم، ففي الحديث عن ابن عبّاس أنّه قال: إنّ رجلا وقع في أب للعبّاس كان في الجاهليّة فلطمه، فقال النّبيّ : (لا تسبّوا أمواتنا، فتؤذوا أحياءنا، ألا إنّ البذاء لؤم)[2]

بل اعتبرها من النفاق، فقال: (الحياء والعيّ شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان[3] شعبتان من شعب النّفاق)[4]

بل حذر أصحابها من النار، فقال: (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنّة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النّار)[5]

---

[1] رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وبقية رجاله وثقوا.

[2] رواه النسائي بإسناد صحيح.

[3] المراد بالبيان: كشف ما لا يجوز كشفه، أو المراد به المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف.

[4] رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه على شرطهما.

[5] رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

بـل بين أن البـذيء لا يسـتحق اسـم الإيمـان، فقـال: (ليس المؤمن بالطّعّان ولا اللّعّان ولا الفاحش ولا البذيء)(1)

بل بين بغض الله للبذيء، فقال: (ما شـيء أثقـل في مـيزان المؤمن يـوم القيامـة من خلـق حسـن، وإنّ اللّـه ليبغض الفـاحش البذيء)(2)

قلنا: لقد ملأتنا بالمخافة.. فما البذاءة؟

قال: هي مسارعة اللسان الذي هو المعـبر عن الإنسـان إلى الكلام القبيح الشنيع الذي ترتعد له قلوب الصالحين.

قال رجل منا: فهي ما نعبر عنه بالسباب.

قال: أجل.. حتى لو كان السباب لما لا يعقـل.. ففي الحـديث عن جابر، أنّ رسول اللّه ، دخل على أمّ السّائب فقال: (مالك يـا أمّ السّائب تزفزفين(3)؟) قالت: الحمّى لا بارك اللّه فيهـا، فقـال: (لا تسبّي الحمّى، فإنّها تـذهب خطايـا بـني آدم كمـا يـذهب الكـير خبث الحديد)(4)

ولعن رجـل الـرّيح، على عهـد النّـبيّ ، فقـال النّـبيّ : (لا تلعنهـا، فإنّهـا مـأمورة، وإنّـه من لعن شـيئا ليس لـه بأهـل رجعت اللّعنة عليه)(5)

وجاء أعرابيّ جريء إلى رسول اللّه فقال: يا رسـول اللّـه: أخبرنا عن الهجرة إليـك أينمـا كنت، أو لقـوم خاصّـة، أم إلى أرض معلومة، أم إذا متّ انقطعت؟ قال: فسـكت عنـه يسـيرا ثمّ قـال: (أين السّائل؟) قال: ها هـو ذا يـا رسـول اللّـه. قـال: (الهجـرة أن تهجـر الفـواحش مـا ظهـر منهـا ومـا بطن، وتقيم الصّـلاة، وتـؤتي

1() رواه الترمذي وقال: حسن غريب. وأحمد والحاكم وصححه.

2() رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

3() تزفزفين: يعني تتحركين حركة شديدة وترتعدين.

4() رواه مسلم.

الزّكاة، ثمّ أنت مهاجر وإن متّ بالحضر)[1]

وعن أبي بـرزة قـال: بعث رسـول اللّـه رجلا إلى حيّ من أحياء العرب، فسبّوه وضربوه، فجـاء إلى رسـول اللّـه فـأخبره. فقال رسـول اللّـه : (لـو أنّ أهـل عمـان[2] أتيت، مـا سـبّوك ولا ضربوك)[3]

وقـال : (إنّ اللّعّـانين لا يكونـون شـهداء ولا شـفعاء يـوم القيامة)[4]

وقال: (الصّيام جنّة، فلا يرفث ولا يجهـل، وإن امـرؤ قاتلـه أو شاتمه، فليقل: إنّي صائم- مرّتين- والّذي نفسي بيـده لخلـوف فم الصّائم أطيب عنـد اللّـه من ريح المسـك، يـترك طعامـه وشـرابه وشـهوته من أجلي، الصّـيام لي وأنـا أجـزي بـه، والحسـنة بعشـر أمثالها)[5]

وعن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذرّ بالرّبذة[6] وعليـه برد وعلى غلامه مثله. فقلنا: يا أبا ذرّ لو جمعت بينهما كـانت حلّـة، فقـال: إنّـه كـان بيـني وبين رجـل من إخـواني كلام، وكـانت أمّـه أعجميّـة، فعيّرتـه بأمّـه، فشـكاني إلى النّـبيّ ، فلقيت النّـبيّ ، فقال: (يا أبا ذرّ إنّك امرؤ فيك جاهليّـة) قلت: يـا رسـول اللّـه، من سبّ الرّجـال سـبّوا أبـاه وأمّـه. قـال: (يـا أبـا ذرّ، إنّـك امـرؤ فيـك جاهليّـة، هم إخـوانكم جعلهم اللّـه تحت أيـديكم، فـأطعموهم ممّـا تـأكلون، وألبسـوهم ممّـا تلبسـون، ولا تكلّفـوهم مـا يغلبهم فـإن

5() رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب.

1() رواه أحمد.

2() عمان: مدينة بالبحرين، وهي الآن في سلطنة عمان.

3() رواه مسلم.

4() رواه مسلم.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() الربذة: موضع بالبادية بينه وبين المدينة ثلاث مراحل، وهو في شمال المدينـة نفي إليـه أبو ذر وتوفي ودفن فيه.

كلّفتموهم فأعينوهم)[1]

وقال : (من الكبائر شتم الرّجل والديـه). قـالوا: يـا رسـول اللّـه، وهـل يشـتم الرّجـل والديـه؟ قـال: (نعم، يسـبّ أبـا الرّجـل فيسبّ أباه ويسبّ أمّه فيسبّ أمّه)[2]

وعن جابر بن سليم، قال: رأيت رجلا يصدر النّـاس عن رأيـه، لا يقول شيئا إلّا صدروا عنه، قلت: من هـذا؟ قـالوا (هـذا) رسـول اللّه . قلت: عليك السّلام يا رسـول اللّـه- مـرّتين- قـال: (لا تقـل عليك السّلام! فإنّ عليك السّلام تحيّة الميّت قـل: السّـلام عليـك) قال: قلت: أنت رسـول اللّـه ؟ قـال: (أنـا رسـول اللّـه الّـذي إذا أصابك ضرّ فدعوته كشـفه عنـك، وإن أصـابك عـام سـنة فدعوتـه أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضـلّت راحلتـك فدعوتـه ردّها عليك، قلت: اعهد إليّ، قال: (لا تسبّنّ أحدا) قال: فما سببت بعده حرّا ولا عبدا، ولا بعيرا ولا شاة، قـال: (ولا تحقـرنّ شـيئا من المعروف، وأن تكلّم أخاك وأنت منبسط إليـه وجهـك إنّ ذلـك من المعـروف، وارفـع إزارك إلى نصـف السّـاق، فـإن أبيت فـإلى الكعبين، وإيّاك وإسبال الإزار فإنّها من المخيلـة، وإنّ اللّـه لا يحبّ المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيّرك بما يعلم فيك فلا تعيّره بما تعلم فيه، فإنّما وبال ذلك عليه)[3]

قال الرجل: وعينا خطـورة البـذاءة.. فـاذكر لنـا الأرض الـتي تنبت فيها لئلا نسير إليها.

قال: أرضها هي أرض الخبث واللّؤم.

قال الرجل: أقصد الباعث عليها.

قال: الباعث عليها إمّا قصد الإيذاء، وإمّا الاعتياد الحاصل من مخالطة الفسّاق وأهل الخبث واللّؤم لأنّ من عادتهم السّبّ..

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أبو داود.

قال الرجل: فهلا فصلت لنا ما نفقه به حقيقة البذاءة.

قال: يمكن حصر البذاءة في كلّ حـال تخفى ويسـتحيا منهـا، فإنّ التّصـريح في مثـل هـذه الحـال فحش وينبغي الكنايـة عنهـا.. وكذلك يدخل في ذكر العيوب الّتي يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبّـر عنها بصريح اللّفظ[1].

النجوى:

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا صفة أخرى من صفات اللئيم.

قال: من صفات اللئيم النجوى.

قلنا: ما النجوى؟

قال: هي تلك التي أشار عليها قوله تعالى: لا خَيْرَ فِي كَثِـيرٍ مِنْ نَجْـواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَـرَ بِصَـدَقَةٍ أَوْ مَعْـرُوفٍ أَوْ إِصْـلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَـوْفَ نُؤْتِيـهِ أَجْـراً عَظِيمـاً (114) (النسـاء)، وقولـه: وَإِذا قَـرَأْتَ الْقُـرْآنَ جَعَلْنـا بَيْنَـكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنـا عَلى قُلُـوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُـوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْـراً وَإِذا ذَكَـرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُـرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْـتَمِعُونَ إِلَيْـكَ وَإِذْ هُمْ نَجْـوى إِذْ يَقُـولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُـونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (47) (الإسراء)

ونهى عنهـا ، فقـال: (إذا كنتم ثلاثـة فلا يتنـاجى اثنـان دون الآخر حتّى تختلطوا بالنّاس من أجل أنّ ذلك يحزنه)[2]

وقال: (لا يتناجى اثنـان دون صـاحبهما، ولا يقيم الرّجـل أخـاه من مجلسه ثمّ يجلس)[3]

وقال: (لا يتناجى اثنان دون الثّالث؛ فإنّ ذلك يـؤذي المـؤمن،

1() الإحياء بتصرف.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أحمد.

والله يكره أذى المؤمن)[4]

وقال: (لا يتسارّ اثنان دون الثّالث)[5]

قلنا: وعينا هذا.. ولكن الكل يقع فيه.. بل قد نـرى الصـالحين يقعون فيه.

قال: النجوى تختلف باختلاف الأمر المتنـاجى فيـه، فـإن كـان أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر، فهـذا لا شـيء فيـه، وقـد اسـتثنى المولى- عزّ وجلّ- من فعل ذلك من انعـدام الخيريّـة الغالبـة على النّجوى فقال : لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ (114) (النساء)

وفيمـا عـدا ذلـك فالتّسـارّ خصوصـا في وجـود الآخـرين أمـر مذموم يسوّل به الشّيطان ليقع سوء الظّنّ بين النّاس، قال تعالى : أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُـوا عَنِ النَّجْـوى ثُمَّ يَعُـودُونَ لِمـا نُهُـوا عَنْـهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُـولِ وَإِذا جـاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمـا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَـوْ لا يُعَـذِّبُنَا اللَّهُ بِمـا نَقُـولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) (المجادلة)، وقد نـزلت هذه الآيات في اليهود والمنافقين.

وقد اشتملت آية أخرى على المحمود والمذموم من التّنـاجي فقال تعالى ناهيا عن التّناجي المذموم وآمرا بالتّناجي المحمود : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُـدْوانِ وَمَعْصِـيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِـالْبِرِّ وَالتَّقْـوى وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْـهِ تُحْشَـرُونَ (9) (المجادلة)

الإسراف:

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا صفة أخرى من صفات اللئيم.

قال: من صفات اللئيم الإسراف.

قلنا: في الطعام؟

4() رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط.

5() رواه أحمد.

قال: في كل شيء.. فالإسراف هو التعدي، والتعدي قد يحصل في أي شيء.. ولهذا، فإن المؤمنين يستغفرون من الإسراف في كل أمر، قال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (147) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) (آل عمران)

وقال تعالى يبين عموم الإسراف: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)) (الزمر)

وذكر الله تعالى الإسراف في المال، فقال: وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (6) (النساء)

وذكره في أرزاق أخرى، فقال: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) (الأنعام)

وذكره في الأكل والشرب، فقال: يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) (الأعراف)

وذكره في القتل، فقال: وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33) (الإسراء)

وذكره في الكفر، فقال: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ

جـاءَتْهُمْ رُسُـلُنا بِالْبَيِّنـاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِـيراً مِنْهُمْ بَعْـدَ ذلِـكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)﴾ (المائدة)

وذكره في أنواع الشذوذ، فقال:﴿ وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَـدٍ مِنَ الْعـالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَـلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ مُسْـرِفُونَ (81) وَمـا كانَ جَـوابَ قَوْمِـهِ إِلَّا أَنْ قـالُوا أَخْرِجُـوهُمْ مِنْ قَـرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنـاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغـابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الْمُجْـرِمِينَ (84)﴾ (الأعراف)

وذكره رسول الله ﷺ في أمور كثيرة، فقـال: (كلـوا وتصـدّقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة)[1]، وقال: (إنّ اللّه- عزّ وجلّ- حرّم عليكم عقوق الأمّهات، ووأد البنات، ومنعا وهـات، وكـره لكم ثلاثا: قيل وقال، وكـثرة السّـؤال، وإضـاعة المـال)[2]، وقـال: (إنّ اللّه يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثـا، فيرضـى لكم أن تعبـدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرّقوا، ويكـره لكم قيل وقال، وكثرة السّؤال وإضاعة المال)[3]

وعن معاذ أنّه قال: قال رسول اللّـه ﷺ، لمّـا بعثـه إلى اليمن: (إيّاك والتّنعّم، فإنّ عباد اللّه ليسوا بالمتنعّمين)[4]

وجاء أعرابيّ إلى النّبيّ ﷺ يسأله عن الوضوء، فـأراه الوضـوء ثلاثا ثلاثا ثمّ قـال: (هكـذا الوضـوء. فمن زاد على هـذا، فقـد أسـاء وتعدّى وظلم)[5]

وقـال ﷺ: (المـؤمن يأكـل في معى واحـد، والكـافر يأكـل في

---

[1] () رواه النسائي وابن ماجة.

[2] () رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

[3] () رواه البخاري ومسلم.

[4] () رواه أحمد والبيهقي ورواة أحمد ثقات.

[5] () رواه النسائي واللفظ له، وأبو داود وابن ماجة.

سبعة أمعاء)[1]

وقـال: (مـا ملأ آدميّ وعـاء شـرّا من بطن، بحسـب ابن آدم أكلات يقمن صـلبه، فـإن كـان لا محالـة، فثلث لطعامـه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)[2]

المجاهرة:

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا صفة أخرى من صفات اللئيم.

قال: من صفات اللئيم المجاهرة.

قلنا: ما المجاهرة؟

قال: تلك التي أشار إليهـا قولـه تعـالى: لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْـرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَـوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكـانَ اللَّهُ سَـمِيعاً عَلِيمـاً (118) (النساء)، وقوله: قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَمـا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَـقِّ وَأَنْ تُشْـرِكُوا بِاللَّهِ مـا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُـلْطاناً وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ مـا لا تَعْلَمُـونَ (33) (الأعـراف)، وقوله: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِـيعَ الْفاحِشَـةُ فِي الَّذِينَ آمَنُـوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الـدُّنْيا وَالْآخِـرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُـونَ (19) (النور)

ونهى عنها ، وبين عظم جرمها، فقال: (كلّ أمّتي معـافى إلّا المجـاهرين، وإنّ من المجـاهرة أن يعمـل الرّجـل باللّيـل عملا، ثمّ يصبح وقد ستره اللّه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربّه، ويصبح يكشف ستر اللّه عنه)[3]

وقال: (ما ظهر في قوم الرّبا والزّنا إلّا أحلّوا بأنفسهم عقـاب اللّه)[4]

1() رواه البخاري.

2() رواه الترمذي واللفظ له، وقال: حسن صحيح. وابن ماجة والحاكم وصححه. وابن حبان.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه أحمد وأبو ادود، وبعضه عند أبي داود.

وقال:(يكون في آخر هذه الأمّة خسف ومسخ وقذف). قالت، قلت: يا رسول اللّه، أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال: (نعم إذا ظهر الخبث)(1)

وقال: (إنّ اللّه لا يحبّ الفحش، أو يبغض الفاحش والمتفحّش، قال: ولا تقوم السّاعة حتّى يظهر الفحش والتّفاحش، وقطيعة الرّحم، وسوء المجاورة، وحتّى يؤتمن الخائن، ويخوّن الأمين، وقال: ألا إنّ موعدكم حوضي، عرضه وطوله واحد، وهو كما بين أيلة ومكّة، وهو مسيرة شهر، فيه مثل النّجوم أباريق، شرابه أشدّ بياضا من الفضّة، من شرب منه مشربا لم يظمأ بعده أبدا)(2)

قلنا: فعلام تنص هذه النصوص المقدسة؟

قال: تنص على ثلاثة أنواع من المجاهرة اللئيمة.

قلنا: فما أولها؟

قال: إظهار المعصية، كما يفعل المجّان والمستهترون بحدود اللّه.. والّذي يفعل المعصية جهارا يرتكب محذورين: الأوّل: إظهار المعصية، والآخر: تلبّسه بفعل المجّان، والمجون مذموم شرعا وعرفا.

قلنا: فما الثاني؟

قال: إظهار ما ستر اللّه على العبد من فعله المعصية، كأن يحدّث بها تفاخرا أو استهتارا بستر اللّه تعالى، وهؤلاء هم الّذين لا يتمتّعون بمعافاة اللّه عزّ وجلّ.

قلنا: فما الثالث؟

قال: ما يفعله الفسّاق من مجاهرة بعضهم بعضا بالتّحدّث بالمعاصي.

1() رواه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

2() رواه أحمد.

النجاسة:

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا صفة أخرى من صفات اللئيم.

قال: من صفات اللئيم النجاسة[1].

قلنا: أتلك التي نراها بأعيننا فنستقذرها، أو نشمها، فنغلق أنوفنا من رائحتها المنتنة؟

قال: ذلك نوع من أنواع النجاسة.. وهناك أنواع أخرى لا ترونها.. رائحتها لا تطيقها السموات والأرض.

قلنا: فما هي هذه الرائحة؟

قال: تلك التي أشار إليها قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28) (التوبة)، وقوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (125) (الأنعام)، وقوله: وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) (المدثر)

وأشار إليها عندما قال في دعائه: (اللّهمّ لك الحمد ملء السّماء وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. اللّهمّ طهّرني بالثّلج والبرد والماء البارد. اللّهمّ طهّرني من الذّنوب ونقّني منها كما ينقّى الثّوب الأبيض من الوسخ)[2]

وعندما قال مبينا تأثير الصلاة في الطهارة: (أرأيتم لو أنّ نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمسا ما تقول ذلك يبقي من درنه؟) قالوا: لا يبقي من درنه شيئا. قال: (فذلك مثل الصّلوات الخمس يمحو اللّه به الخطايا)[3]

---

[1] النّجاسة: هي المستقذر الّذي يطلب مباعدته والبعد منه بحيث لا يلمس ولا يشمّ ولا يرى (إغاثة اللهفان: 1/ 59)

[2] رواه أحمد ومسلم.

[3] رواه البخاري ومسلم.

وأشار إليه قوله ﷺ عندما اعتبر الطهارة نصف الإيمان، فقال :(الطهور شطر الإيمان)(1)

قال رجل منا: فسر لنا هذا.. فكيف يكون الطهور الذي هو إفاضة الماء على بعض الجوارح نصف الإيمان؟

قال(2): هيهات أن يقصد رسول الله ﷺ ذلك.. والطهارة أعظم من أن تنحصر في ذلك.. الطهارة لها أربع مراتب، لا يمكن أن تتحقق من دونها.. وهي في كل محل نصف ما جاء الإسلام للدعوة إليه.

قلنا: فما **أولاها**؟

قال: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.. وهي من مهمات الدين، فلا يكون المسلم إلا نظيفا، وقد ورد في الحديث عن جابر أنّه قال: أتانا رسول اللّه ﷺ فرأى رجلا شعثا قد تفرّق شعره، فقال: (أما كان يجد هذا ما يسكّن به شعره؟) ورأى رجلا آخر وعليه ثياب وسخة. فقال: (أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه؟)(3)

وعن ابن عبّاس قال: مرّ رسول اللّه ﷺ على قبرين فقال: (إنّهما يعذّبان وما يعذّبان في كبير: أمّا هذا فكان لا يستنزه من بوله، وأمّا هذا فإنّه كان يمشي بالنّميمة)، ثمّ دعا بعسيب رطب فشقّه باثنين فغرس على هذا واحدا، وعلى هذا واحدا ثمّ قال: (لعلّه يخفّف عنهما ما لم ييبسا)(4)

ولأجل هذه الطهارة وضع الفقهاء الفروع الفقهية الكثيرة المبنية على ما ورد في النصوص المقدسة، وكلها تهدف إلى تخليص المسلم من اللؤم المرتبط بهذا الجانب.

---

(1) رواه مسلم.

(2) انظر: الإحياء.

(3) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

(4) رواه البخاري ومسلم.

قلنا: فما الثانية؟

قال: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثـام.. فلا يمكن لأي مـاء في الدنيا أن يطهر الجوارح المتسخة بالظلم والإثم والجريمة.

قلنا: فما الثالثة؟

قال: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

قلنا: فما الرابعة؟

قال: تطهير الروح عما سوى الله تعالى.. وهي طهارة الأنبياء والصديقين.

أكل الحرام:

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا صفة أخرى من صفات اللئيم.

قال: من صفات اللئيم أكله للحرام، وتلـذذه بـالحرام، وعـدم تفريقه بين الحلال والحرام.

قال رجل منا: أتقصد تلك المطعومات الـتي وردت النصـوص المقدسة بتحريمها.. كما في قوله تعالى: إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بـاغٍ وَلا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْـهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (173) (البقـرة)، وقولـه: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْـرِ اللَّهِ بِـهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَـةُ وَمـا أَكَـلَ السَّـبُعُ إِلَّا مـا ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ.. (3) (المائدة)، وغيرها من الآيات الكريمة.

قال: تلك بعض المحرمات، وهناك غيرها كثير..

قال الرجل: لا أحسب المحرمات إلا ما ذكرت.

قـال: لقـد ذكـر اللـه محرمـات أخـرى لا تقـل عن الميتـة والخنزير.

قال الرجل: أتقصد أنه يمكن أن يأكل الإنسان خبزا أو فاكهـة

ويكون آكلا للحرام؟

قال: أجل.. لقد ذكر اللـه ذلـك، فقـال: وَلا تَـأْكُلُوا أَمْـوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِـلِ وَتُـدْلُوا بِهـا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَـأْكُلُوا فَرِيقـاً مِنْ أَمْـوالِ النَّاسِ بِـالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (188) (البقـرة)، وقـال: وَآتُـوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْـوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (2) (النساء)، وقـال: يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (29) (النساء)

وفي الحـديث عن رسـول اللـه قـال: (ليـأتينّ على النّـاس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن الحلال أم من حرام)(1)

وقال: (يا أيّها النّاس! إنّ اللّه طيّب لا يقبل إلّا طيّبا، وإنّ اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال : يا أَيُّهَـا الرُّسُـلُ كُلُـوا مِنَ الطَّيِّبــاتِ وَاعْمَلُــوا صــالِحاً إِنِّي بِمــا تَعْمَلُــونَ عَلِيمٌ (51) (المؤمنـون)، وقـال : يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا كُلُـوا مِنْ طَيِّبـاتِ مـا رَزَقْناكُمْ (172) (البقرة)، ثمّ ذكـر الرّجـل يطيـل السّـفر أشـعث أغـبر يمـدّ يديـه إلى السّـماء. يـا ربّ! يـا ربّ! ومطعمـه حـرام، ومشربه حـرام، وملبسـه حـرام، وغـذي بـالحرام، فـأنّى يسـتجاب لذلك؟)(2)

وقال: (اجتنبوا السّبع الموبقات)، قـالوا: يـا رسـول اللّـه ومـا هنّ؟ قال: (الشّرك باللّه، والسّحر، وقتل النّفس الّتي حرّم اللّه إلّا بالحقّ، وأكل الرّبا، وأكل مال اليتيم، والتّولّي يوم الزّحـف، وقـذف المحصنات المؤمنات الغافلات)(3)

وقال: (إنّ رجالا يتخوّضون في مال اللّه بغير حقّ، فلهم النّار يوم القيامة)(4)

1() رواه البخاري.

2() رواه مسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه البخاري.

وقال: (إنّما أنا بشر، وإنّكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضــكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو مــا أســمع، فمن قضيت له من حقّ أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنّما أقطع لـه قطعـة من النّار)(1)

وعن كعب بن عجرة قـال: قـال لي رسـول اللّـه : (أعيـذك باللّـه يـا كعب بن عجـرة من أمـراء يكونـون بعـدي، فمن غشـي أبــوابهم فصــدّقهم في كــذبهم وأعــانهم على ظلمهم فليس منّي ولست منه ولا يـرد عليّ الحـوض، ومن غشـي أبـوابهم أولم يغش فلم يصــدّقهم في كــذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهــو منّي وأنــا منـه، وسـيرد عليّ الحـوض.. يـا كعب بن عجـرة! الصّـلاة برهـان، والصّوم جنّة حصينة. والصّدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء المــاء النّار، يا كعب بن عجرة! إنّه لا يربو لحم نبت من سـحت إلّا كـانت النّار أولى به)(2)

وعن وائل بن حجرأنّه قال: جاء رجـل من حضـرموت ورجـل من كندة إلى النّبيّ ، فقال الحضرميّ: يا رسول اللّه، إنّ هذا قــد غلبني على أرض كانت لأبي. فقـال الكنـديّ: هي أرضـي في يـدي أزرعها ليس له فيها حـقّ. فقـال رسـول اللّـه للحضـرميّ (ألـك بيّنة؟) قال: لا. قال: (فلك يمينه). قال: يـا رسـول اللّـه إنّ الرّجـل فاجر لا يبالي على ما حلف عليـه، وليس يتـورّع من شـيء. فقـال (ليس لك منه إلّا ذلك) فانطلق ليحلف، فقـال رسـول اللّـه لمّـا أدبر: (أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلما، ليلقينّ اللّـه وهـو عنـه معرض)(3)

وخطب رسول الله فقال: (لا واللّه! ما أخشى عليكم، أيّهـا النّاس إلّا ما يخرج اللّه لكم من زهرة الدّنيا) فقال رجل: يا رسول اللّه! أيأتي الخير بالشّرّ؟ فصـمت رسـول اللّـه : سـاعة. ثمّ قـال (كيف قلت؟) قال: قلت: يا رسول اللّه! أيأتي الخير بالشّرّ؟ فقـال

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه الترمذي وقال: هذا حـديث حسـن غـريب، والنسـائي والحـاكم وقـال: هـذا حـديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

3() رواه مسلم.

له رسول اللّه (إنّ الخير لا يأتي إلّا بخير، أو خير هو؟ إنّ كلّ ما ينبت الرّبيع يقتل حبطا[1] أو يلمّ. إلّا آكلة الخضر. أكلت حتّى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشّمس. ثلطت[2] أو بالت. ثمّ اجترّت، فعادت فأكلت. فمن يأخذ مالا بحقّه يبارك له فيه. ومن يأخذ مالا بغير حقّه فمثله كمثل الّذي يأكل ولا يشبع)[3]

وعن جابر أنّه سمع رسول اللّه يقول وهو بمكّة عام الفتح: (إنّ اللّه ورسوله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام)، فقيل: يا رسول اللّه أرأيت شحوم الميتة فإنّه يطلى بها السّفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح[4] بها النّاس، فقال: (لا، هو، حرام)، ثمّ قال رسول اللّه عند ذلك: (قاتل اللّه اليهود، إنّ اللّه لمّا حرّم شحومها جملوه[5]، ثمّ باعوه فأكلوا ثمنه)[6]

***

بقينا مع الحليمي أياما معدودات يخبرنا فيها عن اللؤم وأهله، ويستعمل في التنفير عنه كل ما آتاه الله من العلم والحكمة.. وبعد أن رأى أن المحيطين به قد فقهوا عنه ما أراد أن يبلغهم إياهم ويدربهم عليه، طلب منهم أن يسيروا للقسم الخامس.

1() حبطت: الحبط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها.

2() ثلطت: الثلط الرقيق من الرجيع، قال ابن الأثير: وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() يستصبح بها النّاس: أي يوقدون بها مصابيحهم.

5() جملوه: أي أذابوه واستخرجوا دهنه.

6() رواه البخاري.

خامسا ـ البخل

بعد أن انتهينا من الدراسة في القسم الرابـع، وبعـد أن رأيت تأثير التعاليم التي بثها الحليمي في نفوس السـامعين، سـرت مـع أهل السوق إلى القسم الخامس، وكان اسمه (قسم البخل)، وقد عرفنا أن شيخه هو أديب الأدباء عمرو بن بحر الجاحظ[1].

وعلى خلاف مـا كنـا نتوقـع، فقـد اسـتقبلنا في هـذا القسـم بطعام لم نذق مثله في حياتنا، وكان المشـرف على الإطعـام هـو الجاحظ نفسه، وقد سأله بعضنا حينهـا متهكمـا: لقـد كـان سـميك مشهورا بالبخل، وقد كتب عن البخلاء كتابه المعروف.

قال الجاحظ: لا.. لقد أساء الناس فهم كتابه، فهو أولى باسم (المقتصدين) منه باسم (البخلاء)، ذلك أنـه وضـع فيـه آداب تـدبير المعيشة، وذلك ليس من البخل في شيء..

نعم لقد خلط فيه بعض نكات البخلاء، وهو من السلوى الـتي تعود العلماء أن يزينوا بها كتبهم ليرغبوا القارئين في قراءتها.

قال رجل منـا: ومـا **الفرق بين التـدبير والبخل**.. أليسـا شيئا واحدا؟

قال الجاحظ[2]: لا.. شتان بينهما.. نعم قـد يتفقـان في بعض الصـور والمظـاهر، ولكنهمـا يختلفـان اختلافـا شـديدا من حيث الحقيقـة، فكمـا أن التواضـع - الـذي هـو من الأخلاق المحمـودة -

---

1() أشير به إلى عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحـظ (150هــ - 255هــ) أشـهر أدبـاء القرنين الثاني والثالث الهجريين وأوسعهم ثقافـة. وقـد جمـع بين العلم والأدب، فكـان ملمًـا بجميع معـارف عصـره من لغـة وشـعر وأخبـار وعلم كلام وتفسـير وطبيعـة، وقـد كـان كاتبًـا متكلمًا معتزليًا، بل كان رأس طائفة من المعتزلة عرفت بالجاحظية نسبة إليه.. وقد اخترنـاه هنا لأجل كتابه الشهير (البخلاء)، وهو كتاب صوّر فيه البخلاء وتصوراتهم وماتنطوي عليــه من سخرية لاذعةٍ بسلوكهم. واتخذ من القصص وصناعة الأخبار وسيلة في هـذا الكتـاب، متهكمـا بالبخلاء وبفلسفاتهم. ووفر لهذه القصـص معـالم تـوهم بواقعيتهـا ممثلاً في أشـكال الإسـناد وتحديد أسماء لشخصيات واقعية، وأسماء مدن وقرى وطوائـف كـانت معروفـة في عصـره، بالإضـافة إلى اسـتعمال اللغـة المحكيـة في حـوار شخصـياته. (انظـر: الموسـوعة العربيـة العالمية)

2() نقلنا المعاني الواردة هنا في الفرق بين الاقتصاد والخسة من اللمعة التاسعة عشـر من كليات رسائل النور للنورسي.

يخالف معنىً التذللَ الذي هو من الأخلاق المذمومة مع أنه يشابهه صورة، وكما أن الوقار الذي هو من الخصال الحميدة يخالف معنىً التكبّر الذي هو من الأخلاق السيئة مع أنه يشابهه صورة.. فكذا الحال في الاقتصاد الذي هو من الأخلاق النبوية السامية، بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الحكمة الإلهية المهيمن على الكون، لا علاقة له أبداً بالخسة التي هي مزيج من السفاهة والبخل والجشع والحرص.. بل ليست هناك من رابطة بينهما قطعاً، إلاّ ذلك التشابه الظاهري.

قال الرجل: فما دمت تعتقد هذا الاعتقاد، فكيف أكرمتنا بهذا الكرم.. فقد علمنا أنك أنت الذي أنفقت عليه.

قال الجاحظ: بل الله هو الذي أنفق عليكم، وما أنا إلا واسطة..

قال الرجل: أليس ما فعلته أسرافا؟

قال الجاحظ: ألا تعرف ما قدم إبراهيم ﷺ لأضيافه؟

قال الرجل: بلى.. لقد ذكر الله ذلك، فقال : فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) (الذاريات)

قال الجاحظ: ما دمت قد ذكرت ذلك، فما صنعت أنا بجنب ما صنع الخليل؟

قلنا: فحدثنا عن سر اختيارك لهذا القسم لتدرس فيه دون سائر الأقسام.

قال الجاحظ: لقد هداني إلى ذلك أولا واقع عشته، ثم سنن تأملتها، رأيت للبخل فيها أثره الخطير في هدم النفس وهدم المجتمعات بل هدم الأمم.

وقد قصدت النصوص المقدسة لأتأكد من مدى صحة اكتشافي، فوجدتها تقرر هذه الحقيقة، بل تضع لها من الأهمية فوق ما اكتشفته.

لقد قال يذكر مدى تأثير البخل في تفكك المجتمعات:

(اتّقوا الظّلم؛ فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة، واتّقوا الشّحّ، فإنّ الشّحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم)(1)

وقال يبين العلاقة بين البخل وسفك الدماء: (يتقارب الزّمان، وينقص العلم، ويلقى الشّحّ، ويكثر الهرج) قالوا: وما الهرج؟ قال: (القتل القتل)(2)

بل رأيت أن البخيل قد يصل به بخله إلى أن يبخل بأيسر الأشياء على لسانه كالسلام، وكالصلاة على النبي .. ففي الحديث قال رسول الله : (إنّ أعجز النّاس من عجز عن الدّعاء، وأبخل النّاس من بخل بالسّلام)(3)

وروي أنّ رجلا أتى النّبيّ ، فقال: إنّ لفلان في حائطي عذقا(4)، وإنّه قد آذاني وشقّ عليّ مكان عذقه فأرسل إليه النّبيّ ، فقال: (بعني عذقك الّذي في حائط فلان) قال: لا، قال: (فهبه لي) قال: لا. قال: (فبعنيه بعذق في الجنّة) قال: لا. فقال النّبيّ : (ما رأيت الّذي هو أبخل منك إلّا الّذي يبخل بالسّلام)(5)

وقال : (البخيل من ذكرت عنده ثمّ لم يصلّ عليّ)(6)

ولذلك، فقد ورد **الوعيد الشديد للبخلاء ينذرهم المغبة التي يوقعهم فيها بخلهم**:

ففي القرآن الكريم وجدت هذه الآيات التي تخاطب البخلاء

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه الطبراني في الدعاء، ورواه أبو يعلى موقوفا ورجاله رجال الصحيح.

(4) العذق: العرجون بما فيه من شماريخ الرطب، والعرجون: العود الأصفر الذي يحمل الشماريخ، والحائط: البستان.

(5) رواه أحمد والبزار.

(6) رواه أحمد والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

لتملأ قلوبهم رعبا، قال تعالى: وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180) (آل عمران)، وقال: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (37) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً (38) وَما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً (39) (النساء)، وقال: وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) (التوبة)، وقال: إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (36) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (37) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (38) (محمد)، وقال: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) (الحديد)، وقال: وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (10) (الليل)

وفي كتب الحديث وجدت الأحاديث الكثيرة التي تؤكد وتفصل ما ورد في القرآن الكريم من أنواع العذاب التي تلحق البخلاء، قال : (لمّا خلق اللّه جنّة عدن خلق فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثمّ قال لها: تكلّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، قال: وعزّتي لا يجاورني فيك بخيل)[1]

1() رواه الطبراني في الكبير، والأوسط بإسنادين أحدهما جيد ورواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة.

وقال : (ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله فضلا أعطاه اللّه إيّاه فيبخل عليه إلّا أخرج اللّه له يوم القيامة من جهنّم حيّة يقال لها: شجاع، فيطوّق بها)[1]

وقال: (ما من رجل له مال لا يؤدّي حقّ ماله إلّا جعل له طوقا في عنقه شجاع أقرع وهو يفرّ منه وهو يتبعه، ثمّ قرأ مصداقه من كتاب اللّه- عزّ وجلّ- : وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ (180) (آل عمران)[2]

وقال: (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبّتان من حديد من ثديّهما إلى تراقيهما[3]؛ فأمّا المنفق فلا ينفق إلّا سبغت، أو وفرت على جلده حتّى تخفي بنانه وتعفو أثره. وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلّا لزقت كلّ حلقة مكانها، فهو يوسّعها ولا تتّسع)[4]

وقال: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلّا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللّهمّ أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللّهمّ أعط ممسكا تلفا)[5]

وقال: (ما نقض قوم العهد قطّ إلّا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قطّ الّا سلّط اللّه- عزّ وجلّ- عليهم الموت، ولا منع قوم الزّكاة إلّا حبس اللّه عنهم القطر)[6]

وقال: (لا يجتمع غبار في سبيل اللّه ودخان جهنّم في جوف

1() رواه الطبراني في الأوسط والكبير وإسناده جيد.

2() رواه النسائي وابن ماجة.

3() تراقيهما: جمع ترقوة- بفتح التاء- والترقوتان: العظمان المشرفان بين ثغرة النحر والعاتق.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه البيهقي والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم.

عبد أبدا، ولا يجتمع الشّحّ والإيمان في قلب عبد أبدا)(1)

قال رجل منا: وعينا هذا.. ولكن ما **حد البخل**.. فقد اختلط علينا الأمر، فقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم: هذا بخل، ويقول آخرون: ليس هذا من البخل، ثم إنه ما من إنسان إلا ويجد من نفسه حباً للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلاً فإذا لا ينفك أحد عن البخل. وإذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك؟ وما حد السخاء الذي يستحق به البعد صفة السخاوة وثوابها(2)؟

قال الجاحظ: لقد خلق الله المال لحكمة هي صلاحه لحاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل.

فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه؛ إذ لم يؤمر رسول الله إلا بالسخاء، فقد قال الله تعالى له : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) (الإسراء)، وقال : وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) (الفرقان)، فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخ وليس بسخي، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه.

قال الرجل: فقد آل الأمر إلى أن الجود الذي هو نقيض

---

(1) رواه النسائي.

(2) هذه المسألة والجواب عليها نقلناه بتصرف من الإحياء.

البخل مرتبط بمعرفة الواجب.. فما الذي يجب بذله؟

قال الجاحـظ: إن الـواجب قسـمان: واجب بالشـرع، وواجب بالمروءة والعادة[1].. والسخي هو الذي لا يمنـع واجب الشـرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنــع واجب الشرع أبخـل كالـذي يمنـع أداء الزكـاة ويمنـع عيالـه وأهلـه النفقـة، أو يؤديهـا ولكنـه يشـق عليـه، فإنـه بخيـل بـالطبع، وإنمـا يتسخى بالتكلف، أو الذي يتيمم الخـبيث من مالـه ولا يطيب قلبـه أن يعطي من أطيب ماله، أو من وسطه، فهذا كله بخل.

وأما واجب المروءة فهـو تـرك المضـايقة والاستقصـاء، فـإن ذلك مستقبح، واستقباح ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشـخاص، فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح مع غيره.

قال الرجل: عرفنا أن البخيل هو الذي يمنـع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة.. ولكن ذلـك يحتـاج إلى تحديد.. **فهل ورد ما يدل على التحديد في هذا**؟

قال الجاحـظ: إن كنتم من أربـاب الإشـارة، فسـأقص عليكم قصة توضح لكم هذا، ف

قد روي عن بعض المتعبدات أنهـا وقفت على حيـان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت: هـل فيكم من أسـأله عن مسـألة؟ فقالوا لها: سلي عما شئت - وأشاروا إلى حيان بن هلال - فقالت: مـا السـخاء عنـدكم؟ قـالوا: العطـاء والبـذل والإيثـار، قـالت: هـذا السـخاء في الـدنيا فمـا السـخاء في الـدين؟ قـالوا: أن نعبـد اللـه سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة، قـالت: فتريـدون على ذلـك أجراً؟ قالوا: نعم، قالت ولم؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحســنة عشر أمثالـه، قـالت: سـبحان اللـه! فـإذا أعطيتم واحـدة وأخـذتم عشرة فبأي شيء تسخيتم عليه؟ قـالوا لهـا: فمـا السـخاء عنـدك يرحمــك اللــه؟ قــالت: الســخاء عنــدي أن تعبــدوا اللــه متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين ولا تريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشـاء! ألا تسـتحيون من اللـه أن يطلـع على

---

[1] () تحدثنا بتفصيل عن هذا النوع من الواجبات في رسالة (عدالة للعالمين).

قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء؟ إن هذا في الدنيا لقبيح!

وقالت بعض المتعبدات: أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط؟ قيل: ففيم؟ قالت: السخاء عندي في المهج.

وقال المحاسبي: السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ويسخو قلبك ببذل مهجبتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك.

قال رجل منا: وعينا هذا.. فحدثنا عن **الجذور التي ينبت منها البخل** عسى الله أن يوفقنا لاستئصالها.

قال: الجذر الأكبر للبخل هو حب المال.. وقد ذكر الله تعالى أن الإنسان عندما يتخلى عن حقيقته يصير عاشقا للمال، قال تعالى : كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) (الفجر)

قلنا: **فكيف يستأصل حب المال من القلب**؟

قال: بما أن المال هو الوسيلة التي تقضى بها الحوائج والضرورات، فمن المحال استئصال حبه من القلب استئصالا كليا، لأنه لا يمكن الاستغناء عن الحاجات والضرورات، ولهذا أخبر القرآن عن فطرية بخل الإنسان، قال تعالى :.. وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ.. (128) (النساء)

قلنا: فقد آل الأمر إلى توجيه هذا الحب، وتحصينه من أوزار البخل؟

قال: أجل..

قلنا: فكيف يكون ذلك؟

قال: لذلك وسائل كثيرة.. منها كثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم.

قال رجل منا: لقد ذكرت لنا من ذلك ما ملأتنا به رهبة.. فهل من علاج غيره؟

قال: كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه.

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من علاج غيره؟

قال: يتفكر البخيل في مقاصد المال، ولماذا خلق..

قال آخر: وعينا هذا.. فهل من علاج غيره؟

قال: يجاهد نفسه على بذل المال ما أطاق.. وعليه إن أجابت نفسه لبذل المال أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه.

وقد روي في هذا أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذاً له وقال: انزع عني القميص وادفعه إلى فلان، فقال: هلا صبرت حتى تخرج؟ قال: لم آمن على نفسي أن تتغير، وكان قدر لي بذله!

قال الرجل: أليس هذا تكلفا.. وقد ذكرت أن الكريم هو الذي يتكرم عن طيب نفس؟

قال: في العلاج لا بد من التكلف.. فلا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقره؛ حتى إذا سافر وفارق تكلفاً وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه، فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفاً بأن يبذله، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له.

ومن لطائف الحيل التي ذكرها علماؤنا في ذلك أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال، كما يسلي الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب، ولكن لينفك عن الثدي إليه، ثم ينقل عنه إلى غيره.

فكذلك هذه الصفات الخبيثة يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به.

بالإضافة إلى هذا ينبغي منع القوت عن هذه الصفات الخبيثة.. ومنع القوت عنها أن لا يعمل بمقتضاها، فإنها تقتضي لا محالة أعمالاً، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت.. فالبخل - مثلا- يقتضي إمساك المال، فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التعب فيه.

***

بقينا مع الجاحظ أياما معدودات يحدثنا فيها عن مرض (البخل)، ويستعمل في التنفير عنه كل ما آتاه الله من العلم والحكمة.. وبعد أن رأى أن المحيطين به قد فقهوا عنه ما أراد أن يبلغهم إياهم ويدربهم عليه، طلب منهم أن يسيروا للقسم السادس.

سادسا ـ الفحشاء

بعد أن انتهينا من الدراسة في القسم الخامس، وبعد أن رأيت تأثير التعاليم التي بثها الجاحظ في نفوس السامعين، سرت مع أهل السوق إلى القسم السادس، وكان اسمه (قسم الفحشاء)، وقد عرفنا أن شيخه رجل قدم من الأندلس كان اسمه ابن حزم[1].. وعرفنا أنه صاحب خبرة طويلة في العلوم والأخلاق.. وأنه قدم ليقضي ما بقي من عمره في تلك المدرسة ناصحا لعباد الله ومحذرا لهم مغبة الفواحش والمنكرات.

عندما دخلنا المدرسة استقبلنا بقوله: لا يمكن للقلب المدنس بدنس الشهوات أن يفقه حقيقة الإنسان.. إنه يصير كالبهيمة لا هم له إلا إرواء غليل شهواته.

قلنا: فما السبيل لقطع جذور الشهوات التي تجر إلى الفواحش؟

قال: لقد وجدت من خلال استقرائي للنصوص المقدسة وللشريعة الحكيمة التي أنزلها الله على عباده أن العفة غرفة من غرف الكرامة الإنسانية لها أربعة أبواب من دخلها اعتصم بعصمة الله وحفظ بحفظ الله.

قلنا: قبل أن تحدثنا عنها حدثنا عن السبب الذي جعلك تختار هذا القسم دون سائر الأقسام.

قال: لقد تأملت الحياة، وسبرت أغوارها، فرأيت أن الفواحش هي السبب الأكبر في كل خراب يحل بالعمران، بل رأيتها الجرثومة الكبرى التي تنبت كل أنواع الكفران، وتحطم جميع بنيان الإنسان.

ثم ذهبت بعدها إلى النصوص المقدسة أتأملها، فوجدتها تؤكد

---

[1] أشير به إلى علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاَموي بالولاء، أبو محمد الاَندلسي القرطبي، الفارسي الاَصل (384 ـ 456 هـ) مروِّج المذهب الظاهري، ومنقّحه، والمحامي عنه، وناشره في الغرب بعد انحساره عن الشرق. له رسائل كثيرة، منها: (أسماء الخلفاء)، و(الغناء الملهي)، و(الإمامة)، و(مداواة النفوس)، و(طوق الحمامة)، وقد اخترناه هنا لأجل الرسالتين الأخيرتين.

لي ما اكتشفته..

لقـد وجـدت القـرآن يـذكر العقوبـات المشـددة المرتبطـة بالواقعين في الفـواحش.. بـل وجـدتها تنهانـا أن تأخـذنا بهم رأفـة ورحمة، قال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها وَأَنْزَلْنـا فِيهـا آيـاتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِـدٍ مِنْهُمـا مِائَةَ جَلْـدَةٍ وَلا تَأْخُـذْكُمْ بِهِمـا رَأْفَـةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَلْيَشْـهَدْ عَـذابَهُما طائِفَـةٌ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ (2) الـزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَـةً أَوْ مُشْـرِكَةً وَالزَّانِيَـةُ لا يَنْكِحُهـا إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ (3) وَالَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَـناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُـهَداءَ فَاجْلِـدُوهُمْ ثَمـانِينَ جَلْـدَةً وَلا تَقْبَلُـوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْـدِ ذلِـكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)﴾ (النور)

ووجدتـه يجعـل من أمهـات صـفات المؤمـنين ابتعـادهم عن الفـواحش، قـال تعـالى:﴿ وَالَّذِينَ لا يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلهـاً آخَـرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِـكَ يَلْقَ أَثاماً (68) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيـهِ مُهانـاً (69) إِلَّا مَنْ تـــابَ وَآمَنَ وَعَمِــلَ عَمَلًا صــالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَــدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70)﴾ (الفرقان)

ووجدته يخبر أن من بنود البيعة التي كان يبايع بها رسول الله ﷺ أصحابه بيعتهم على الابتعاد عن الفواحش، قال تعالى:﴿ يـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَـزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَـأْتِينَ بِبُهْتـانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِـينَكَ فِي مَعْـرُوفٍ فَبـايِعْهُنَّ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)﴾ (الممتحنة)

وكان ﷺ يبايع أصحابه بقوله: (أبايعكم على أن لا تشركوا باللّه شيئا، ولا تقتلـوا النّفس الّـتي حـرّم اللّـه إلّا بـالحقّ، ولا تزنـوا، ولا تسرقوا، ولا تشربوا مسكرا. فمن فعل من ذلك شيئا فـأقيم عليـه حدّه فهو كفّارة، ومن ستر اللّه عليه فحسابه على اللّه- عزّ وجـلّ- ومن لم يفعل من ذلك شيئا ضمنت له على اللّه الجنّة)[1]

---

[1] رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون.

وأخـــبر أن (من أشـــراط السّـــاعة أن يرفـــع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزّنا)(1)

وقـال : (ثلاثـة لا يكلّمهم اللّـه يـوم القيامـة ولا يـزكّيهم. ولا ينظــر إليهم ولهم عــذاب أليم: شــيخ زان، وملــك كــذّاب، وعائــل مستكبر)(2)

وقـال: (ثلاثـة يحبّهم اللّـه، وثلاثـة يبغضـهم اللّـه: فأمّـا الّـذين يحبّهم اللّه: فرجل أتى قوما فسألهم باللّه ولم يسألهم بقرابة بينـه وبينهم فمنعــوه، فتخلّــف رجــل بأعقــابهم فأعطــاه ســرّا لا يعلم بعطيّته إلّا اللّـه والّـذي أعطـاه، وقـوم سـاروا ليلتهم حتّى إذا كـان النّـوم أحبّ إليهم ممّـا يعـدل بـه نزلـوا فوضـعوا رؤوسـهم، فقـام أحدهم يتملّقني ويتلـو آيـاتي. ورجـل كـان في سـريّة فلقي العـدوّ فهزموا وأقبل بصدره حتّى يقتل أو يفتح له. والثّلاثة الّذين يبغضهم اللّه: الشّيخ الزّاني، والفقير المختال، والغنيّ الظّلوم)(3)

وقال: (إنّ الشّمس والقمر آيتان من آيـات اللّـه لا ينخسـفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا اللّـه وكبّـروا وصـلّوا، وتصدّقوا. ثمّ قال: يا أمّة محمّد. واللّه ما من أحد أغير من اللّه أن يـزني عبـده أو تـزني أمتـه. يـا أمّـة محمّـد. لـو تعلمـون مـا أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا)(4)

وقال: (من زنى وشرب الخمر نزع اللّه منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه)(5)

وقال: (لا تزال أمّتي بخير مـا لم يفش فيهم ولـد الزّنـا، فـإذا فشا فيهم ولد الزّنا فأوشك أن يعمّهم اللّه بعذاب)(6)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه الترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث صحيح، والنسائي.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه الحاكم على شرط مسلم.

وقال: (لا يحلّ دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأنّي رسول اللّه إلّا بإحدى ثلاث: النّفس بالنّفس، والثّيّب الزّاني، والمفارق لدينه التّارك للجماعة)(1)

وقال: (لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السّارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع النّاس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن)(2)

وقال: (لا ينظر اللّه عزّ وجلّ إلى الأشيمط(3) الزّاني، ولا العائل المزهوّ)(4)

وقال: (حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمّهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلّا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء. فما ظنّكم؟)(5)

وقال حين نزلت آية الملاعنة: (أيّما امرأة أدخلت على قوم رجلا ليس منهم فليست من اللّه في شيء، ولا يدخلها اللّه جنّته، وأيّما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب اللّه عزّ وجلّ منه، وفضحه على رؤوس الأوّلين والآخرين يوم القيامة)(6)

وقيل يا رسول اللّه: متى نترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؟ قال: (إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم) قلنا: يا

6() رواه أحمد وإسناده حسن ومثله عند أبي يعلى.

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3()) الأشيمط: تصغير أشمط وهو من اختلط شعر رأسه الأسود بالأبيض. وذلك في سن الشيخوخة.

4() رواه الطبراني ورواته ثقات.

5() رواه مسلم.

6() رواه النسائي وأبو داود والدارمي والحاكم، وقال: صحيح.

رســول اللّــه، ومــا ظهــر في الأمم قبلنــا؟ قــال: (الملــك في صغاركم[1] والفاحشة في كباركم[2]، والعلم في رذالتكم[3])[4]

وعن سلمة بن قيس قال: إنّما هي أربع، فمـا أنـا بأشـحّ منّي عليهنّ يوم سمعتهنّ من رسول اللّه ، ألا لا تشـركوا باللّـه شـيئا، ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم اللّه إلّا بـالحقّ، ولا تزنـوا ولا تسـرقوا)[5]

وعن المقداد بن الأسود أنّه قال: قال رسول اللّه لأصحابه: (ما تقولون في الزّنا؟) قالوا: حرام حرّمه اللّه- عزّ وجلّ- ورسوله فهو حرام إلى يـوم القيامـة. فقـال رسـول اللّـه لأصـحابه: (لأن يزني الرّجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره)[6]

وعن أنس أنّـه قــال: ســمعت من رســول اللّــه حــديثا لا يحدّثكم بـه غـيري قـال: (من أشـراط السّـاعة أن يظهـر الجهـل، ويقلّ العلم، ويظهر الزّنا، ويشـرب الخمـر، ويقـلّ الرّجـال، وتكـثر النّساء حتّى يكون لخمسين امرأة قيّمهنّ رجل واحد)[7]

وعن عبد اللّه بن عمر قال: أقبل علينا رسول اللّـه فقــال: (يــا معشــر المهــاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعــوذ باللّــه أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ، حتّى يعلنوا بها إلّا فشا فيهم الطّاعون والأوجاع الّـتي لم تكن مضـت في أسـلافهم الّـذين مضوا، ولم ينقصوا المكيـال والمـيزان، إلّا أخـذوا بالسّـنين وشـدّة المؤونة، وجور السّلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلّا منعوا

1() في صغاركم: أي إن الملوك يكونون صغار الناس سنا، غير مجربين للأمور، أو ضــعافهم عقلا.

2() في كباركم: المعنى أن الفاحشة وهي الزنا تنتشر وتفشو إلى أن توجد في الكبار أيضا.

3() والعلم في رذالتكم: إذا كان العلم في الفساق.

4() رواه أحمد وابن ماجة.

5() رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

6() رواه أحمد ورواته ثقات والطبراني في الكبير والأوسط.

7() رواه البخاري ومسلم.

القطر من السّماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد اللّه وعهد رسوله، إلّا سلّط اللّه عليهم عـدوّا من غـيرهم فأخـذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمّتهم بكتاب اللّه، ويتخيّروا ممّا أنزل اللّه، إلّا جعل اللّه بأسهم بينهم)[1]

وقد ورد مع هذا النصوص نصوص كثيرة تـدل على العقوبـات القدرية التي قدرها الله على الـواقعين في الفـواحش، ومن ذلـك أن ما ورد من أن الزاني لا تفتح له أبـواب السـماء، قـال :(تفتح أبواب السماء نصف الليل فينادي مناد هل من داع فيستجاب له ؟ هل من سائل فيعطى ؟ هـل من مكـروب فيفـرج عنـه ؟ فلا يبقى مسلم يدعو دعوة إلا استجاب الله عـز وجـل لـه إلا زانيـة تسـعى بفرجها أو عشارا)[2]

وموعد الزاني نار يلتهب بها وجهه، قال :(إن الزناة تشتعل وجوههم نـارا)[3]، وقـال يصـف بعض العقـاب الـذي يتعـذب بـه الزناة في البرزخ :(رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجـاني إلى أرض مقدسة)ـ فذكر الحديث إلى أن قـال ــ :(فانطلقنـا إلى نقب مثـل التنـور أعلاه ضـيق وأسـفله واسـع يتوقـد تحتـه نـار فـإذا ارتفعت ارتفعوا حـتى كـادوا أن يخرجـوا وإذا خمـدت رجعـوا فيهـا ، وفيهـا رجال ونسـاء عـراة)[4]، وفي روايـة قـال :(فانطلقنـا إلى مثـل التنور ، قال فأحسب أنه كان يقول فإذا فيه لغط وأصـوات ، قـال فاطلعنا فيه فإذا فيه رجـال ونسـاء عـراة وإذا هم يـأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا - أي صاحوا)الحـديث، وفي آخره :(وأما الرجال والنساء العـراة الـذين هم في مثـل بنـاء التنور فإنهم الزناة والزواني)

وقد رأيت – مع هذا كله - في الكتب السابقة أن موسـى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذا أقبـل إليـه إبليس وعليـه بـرنس

1() رواه ابن ماجة والحاكم.

2() أحمد والطبراني واللفظ له.

3() الطبراني.

4() البخاري.

يتلون فيه ألواناً؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه، ثم أتاه فقال: السلام عليك يا موسى، فقال له موسى من أنت؟ فقال: أنا إبليس، فقال: لا حياك الله ما جاء بك؟ قال: جئت أسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه، قال: فما الذي رأيت عليك؟ قال: برنس أختطف به قلوب بني آدم قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه، وأحذرك ثلاثاً: لا تخل بامرأة لا تحل لك فإن ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها وأفتنها به، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها. ثم ولى وهو يقول: علم موسى ما يحذر به بني آدم.

وحدثني الثقاة عن بعضهم أنه قال: ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندي منهن، وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتي وبيت ابنتي أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح.

وحدثني آخر قال: إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ، وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي. فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب.

قلنا: وعينا ما ذكرته.. ولا نحسب أننا نخالفك فيه، فنحن نعلم ما تجره الفواحش على أصحابه، بل على المجتمعات والأمم.. فحدثنا عن تلك الغرفة الكريمة التي نحفظ بها كرامتنا، وحدثنا عن أبوابها الأربع.

قال: أبوابها هي تيسير الزواج، وحفظ البصر، وحفظ العرض، وحفظ البيئة.

تيسير الزواج:

قلنا: فحدثنا عن الباب الأول.. حدثنا عن تيسير الزواج.

قال: لقد عبر رسول الله عن هذا الباب من أبـواب العفـة، فقال:(يا معشر الشباب من استطاع منكم البـاءة، فليـتزوج، فإنـه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليـه بالصـوم فإنـه له وجاء)[1]، وقال :(ثلاثـة حـق على اللـه عـونهم: المجاهـد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف)[2]

وقد أشار القرآن الكريم إلى اعتبار الزواج هو السبيل الوحيد للتحصـين من الشـهوات، فلـذلك اعتـبر من صـرف شـهوته بغـير سبيل الـزواج من المعتـدين، قـال تعـالى : وَالَّذِينَ هُمْ لِفُـرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (المؤمنون:5)، ثم اسـتثنى، فقـال: إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ فَـإِنَّهُمْ غَيْـرُ مَلُـومِينَ (المؤمنـون:6)، أي (والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم اللّه عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها اللّـه لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله اللّه له فلا لوم عليه ولا حرج)، فقد استثنت الآية من حفظ الفرج حفظـه عن الزوجة أو ملك اليمين، وهي في حكم الزوجة.

وأشار إليه كذلك قوله تعـالى: وَلْيَسْـتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِـدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ (النور: 33)، فـالنص ظـاهر في أن من مقاصد الزواج الاستعفاف.

قـال رجـل منـا: نحن لا نشـك في دور الـزواج في تحصـيل العفة، ولكنا نسألك عن معنى (تيسير الزواج).. ما تريد به؟

قال: بمـا أن الشـريعة الحكيمـة جـاءت لتحفـظ الإنسـان من شهوات نفسه، فإنها قد شـرعت التشـريعات الكثـيرة الـتي تيسـر هذا الباب العظيم من أبواب العفة.

ومن ذلك أن الله تعالى أمر الله الجماعـة المسـلمة أن تعين من يقـف المـال في طـريقهم إلى النكـاح الحلال، قـال تعـالى: وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] رواه النسائي والترمذي، وقال: هذا حديث حسن.

فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(النـور:32)والأيـامى هم الذين لا أزواج لهم رجالا كانوا أو نسـاء، والمـراد بهم في هـذه الآيــة الأحــرار دون الرقيــق لأنــه أفــردهم في قولــه تعــالى: وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ

ومن ذلك نهى الله عضل المرأة ومنعها من الـزواج إن تقـدم لها الكفء الذي ترغب فيه، فلا يحل عضلها عنه حتى لـو كـان قـد سبق له إيذاءها بالطلاق، قـال تعـالى: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَـاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُـلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَـوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)(البقرة:232)، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقـة أو طلقتين فتنقضي عدتها ثم يبدوا له أن يتزوجها وأن يراجعها وتريـد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى اللّه أن يمنعوها، والذي قاله ظاهر من الآية.

ومثل نهي العضل عن المطلق عضـل المتـوفى عنهـا زوجهـا طمعا في مالها أ وفي عدم خروجها من أسرة الـزوج بعـد وفاتـه، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَـاءَ كَرْهـاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَـإِنْ كَرِهْتُمُـوهُنَّ فَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُـوا شَـيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)(النساء:19)

ومثل ذلك نهى عن عضل أي امـرأة عن الـزواج بمن تتحقـق فيه شرائط الكفاءة، قـال :(إذا أتـاكم من ترضـون دينـه وخلقـه فأنكحوه إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)، قالوا :(يا رسول اللـه، وإن كـان فيـه)، قـال :(إذا جـاءكم من ترضـون دينـه وخلقه فأنكحوه)ثلاث مرات[1].

ومثل ذلـك مـا ورد في النصـوص الكثـيرة من تيسـير رسـوم الزواج من المهـر وغـيره، ففي الحـديث قـال :(أعظم النسـاء بركة أيسرهن صداقا)[2]

---

[1] رواه الترمذي وقال حسن غريب.

وقال ﷺ لرجل: (تزوَّجْ ولو بخاتَم من حديد)[3]

قال رجل منا: وعينا مـا ذكـرت.. ومن الرجـال من لا تحصـنه زوجته لشيء يصـيبها.. ومن النسـاء من يصـيبها العنس ولا تظفـر بالرجل، أو قد ترمل، أو قد تطلق.

قال ابن حزم: لقد حلت الشريعة هذه المعضـلة بإباحـة تعـدد الزوجات، ففيه تأمين لزواج النساء، وفيه تحصين للرجـال.. فبـدل أن يقع في الفاحشة مع التي تاقت إليها نفسه يتزوج بها.

حفظ البصر:

قلنا: عرفنا الباب الأول.. فحدثنا عن الثاني.. حدثنا عن حفـظ البصر.

قال: لعلكم سمعتم بقول الشّاعر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا   لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الّذي لا كلّه أنت قـــــادر   عليه ولا عن بعضه أنت صابر

قال رجل منا: أجل، وقد سمعنا الشاعر الآخر، وهو يقول:

كسبت لقلبي نظرة لتسرّه   عيني فكانت شقوة ووبالا
ما مرّ بي شيء أشدّ من الهوى   سبحان من خلق الهوى وتعالى

قال آخر: وسمعنا آخر، وهو يردد:

ألم تر أنّ العين للقلب رائد   فما تألف العينان فالقلب يألف

قال آخر: وسمعنا آخر، وهو ينشد:

2() رواه ابن حبان والحاكم والبيهقي.

3() رواه البخاري ومسلم.

كلّ الحوادث مبداها من النّظر ... ومعظم النّار من مستصغر الشّرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السّهام بلا قوس ولا وتر
المرء ما دام ذا عين يقلّبها ... في أعين العين موقوف على الخطر
يسرّ مقلته ما ضرّ مهجتـــــه ... لا مرحبا بسرور بعده الضّـــرر

قال ابن حزم: وقبل ذلك أمرنا ربنا، فقـال : قُـلْ لِلْمُـؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِنْ أَبْصَـارِهِمْ وَيَحْفَظُـوا فُـرُوجَهُمْ ذَلِـكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَـا يَصْـنَعُونَ (30) وَقُـلْ لِلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُضْـنَ مِنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُـرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَلْيَضْـرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُـولَتِهِنَّ أَوْ آبَـائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَـوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَـائِهِنَّ أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْـرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْـلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَـرُوا عَلَى عَـوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُـوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31) (النور)

وفي الحديث **ورد في نظر الرجـال للنسـاء** قولـه : (لا تتبع النّظرة النّظرة، فإنّ لك الأولى، وليست لك الآخرة)[1]

وعن جرير، قـال: سـألت رسـول اللّـه عن نظـرة الفجـاءة فأمرني أن أصرف بصري[2].

وعن عبد اللّه بن عبّاس قال: أردف رسول اللّه الفضل بن عبّـاس يـوم النّحـر خلفـه على عجـز راحلتـه، وكـان الفضـل رجلا وضـيئا، فوقـف النّـبيّ للنّـاس يفـتيهم، وأقبلت امـرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول اللّه فطفـق الفضـل ينظـر إليهـا وأعجبـه حسنها، فالتفت النّبيّ والفضـل ينظـر إليهـا فـأخلف بيـده فأخـذ

1() رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال: حسن غريب.

2() رواه مسلم.

بذقن الفضل فعدل وجهه عن النّظر إليها فقالت: يـا رسـول اللّـه؛ إنّ فريضـة اللّـه في الحجّ على عبـاده، أدركت أبي شـيخا كبـيرا لا يستطيع أن يستوي على الرّاحلة، فهل يقضـي عنـه أن أحجّ عنـه؟ قال: (نعم)(1)

وفي خصوص النساء حـدثت أمّ سـلمة قـالت: كنت عنـد رسول اللّه وميمونة، قالت: فبينا نحن عنده أقبل ابن أمّ مكتـوم فدخل عليه وذلك بعـد مـا أمرنـا بالحجـاب. فقـال رسـول اللّـه : (احتجبا منه)، فقلت: يا رسول اللّه؛ أليس هـو أعمى لا يبصـرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول اللّه : (أفعميـاوان أنتمـا؟ ألسـتما تبصـرانه) (2)

ولأجل حفظ البصر وردت الأحاديث الكثـيرة تتشـدد على كل من أطلق بصره حيث لا يحل له إطلاقه، قـال : (من اطّلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حـلّ لهم أن يفقـؤا عينـه) (3)

وعن سهل بن سـعد قـال: إنّ رجلا اطّلـع من جحـر في بـاب رسول اللّه ومع رسول اللّه مدرى(4) يرجّل بـه رأسـه، فقـال رسول اللّه : (لو أعلم أنّك تنظر طعنت به في عينك، إنّمـا جعـل اللّه الإذن من أجل البصر)(5)

وعن أنس بن مالـك أنّ رجلا اطّلـع من بعض حجـر النّـبيّ فقام إليه بمشقص أو مشاقص(6) فكأنّي أنظر إلى رسول اللّـه يختله(7) ليطعنه)(8)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أبو داود.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() المدرى: حديدة تشبه المشط.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() المشاقص: جمع مشقص وهو نصل عريض السهم.

قال رجل منا: لقد كنا نرى أمر البصر هين، فكيف ضيقته علينا كل هذا التضييق؟

ابتسم ابن حزم، وقال: أتدري مم أتي المجنون؟

قال الرجل: أتقصد مجنون ليلى؟

قال ابن حزم: أجل.

قال الرجل: لا شك أن لبصره دورا في ذلك.. فلولا أنه أرسل طرفه ما أصابه الجنون.

قال ابن حزم: فقد أجبت عن سؤالي.. النّظر يولّد المحبّة فتبدأ علاقة يتعلّق بها القلب بالمنظور إليه، ثمّ تقوى فتصير صبابة ينصبّ إليه القلب بكلّيّته، ثمّ تقوى فتصير غراما يلزم القلب كلزوم الغريم الّذي لا يفارق غريمه، ثمّ تقوى فيصير عشقا وهو الحبّ المفرط، ثمّ يقوى فيصير شغفا وهو الحبّ الّذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله، ثمّ يقوى فيصير تتيّما وهو التّعبّد فيصير القلب عبدا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدا له، وهذا كلّه جناية النّظر فحينئذ يصير القلب أسيرا بعد أن كان ملكا، ومسجونا بعد أن كان مطلقا، فيتظلّم من الطّرف ويشكوه، والطّرف يقول: (أنا رائدك ورسولك وأنت بعثتني)(1)

حفظ العرض:

قلنا: عرفنا الباب الثاني.. فحدثنا عن الثالث.. حدثنا عن حفظ العرض.

قال: لم تكتف الشريعة الحكيمة بأن تحفظ أبصار المؤمنين عن المناظر التي قد تجرهم إلى الفحشاء، بل راحت تغرس الغيرة في نفوس جميع أبناء المجتمع ليحموا أعراضهم من العبث بها..

7() يختله: أي يراوغه ويستغفله.

8() رواه البخاري ومسلم.

1() إغاثة اللهفان (1/ 47) بتصرف.

فقد وردت الأحاديث ذامة للدياثة(1)، ومخبرة عن العذاب الشديد الذي ينتظر الديوث، ففي الحديث قال : (ثلاثة لا ينظر اللّه- عزّ وجلّ- إليهم يوم القيامة: العاقّ لوالديه، والمرأة المترجّلة، والدّيّوث. وثلاثة لا يدخلون الجنّة: العاقّ لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنّان بما أعطى)(2)

وفي مقابل ذلك مدحت الغيرة المنضبطة بالضوابط الشرعية، فقد وردت النصوص الكثيرة تبين فضل غيرة الرجل على أهله، وتبين في نفس الوقت خطورة موت القلب والدياثة التي تجعل الرجل لا يبالي بعرضه.

وقد بين أن هذه الغيرة الشرعية دليل كمال على رجولة الرجل، بل على إيمان المؤمن، بل اعتبر المؤمن متخلقا بالتخلق بهذا بوصف من أوصاف الله تعالى، قال :(المؤمن يغار والله يغار ومن غيرة الله أن يأتي المؤمن شيئا حرم الله)(3)

وأخبر عن نفسه وهو الأسوة الحسنة، والإنسان الكامل وخير أنموذج عن الرجولة الكاملة عندما قال له سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك النبي فقال:(أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني) (4)

ولكن هذه الغيرة – مع هذا - لا ينبغي أن تشتط فتخرج إلى الحرام، بل يجب أن تنضبط كما تنضبط جميع سلوكات المسلم بالضوابط الشرعية، وقد جمع تلك الضوابط في قوله :(إن من الغيرة ما يحب الله عز وجل، ومنها ما يبغض الله، ومن الخيلاء ما يحب الله عز وجل ومنها ما يبغض الله عز وجل،فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغض الله فالغيرة

1() الدّياثة فعل الدّيّوث، وهو الّذي يقرّ الخبث في أهله، أي يستحسنه على أهله، وقيل: هو الّذي لا غيرة له على أهله.

2() رواه النسائي.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه البخاري ومسلم.

في غير ريبة، والاختيال الذي يحب الله عز وجل اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة، والاختيال الذي يبغض الله عز وجل الخيلاء في الباطل)[1]

حفظ البيئة:

قلنا: عرفنا الباب الثالث.. فحدثنا عن الرابع.. حدثنا عن حفظ البيئة.

قال: لم تكتف الشريعة بما بثته في نفوس الناس من توجيهات، بل وضعت التشريعات المتشددة التي تحفظ أبناء المجتمع من الوقوع ضحايا الفواحش..

ومن ذلك النهي عن الظهور بالمظاهر السافرة التي قد تحرك النفوس الضعيفة، قال تعالى يبين ضوابط الزينة الشرعية : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)﴾ (النور)

وقال في الأمر بالحجاب :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)﴾ (الأحزاب)

وقال ناهيا عن كل خضوع قد يطمع القلوب المريضة:﴿ يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33) وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ

[1] رواه أبو داود والنسائي وابن حيان والدارمي والبيهقي.

آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (34) (الأحزاب)

ووردت الأحـاديث الكثـيرة تؤكـد هـذه المعـاني، وتفصـل في كيفية تنفيذها، ومن ذلك قوله : (ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل فـارق الجماعة وعصى إمامـه ومـات عاصـيا، وأمـة أو عبـد أبـق فمـات، وامرأة غاب عنها زوجها قد كفاها مؤنـة الـدّنيا فتـبرّجت بعـده. فلا تسأل عنهم.. وثلاثـة لا تسـأل عنهم، رجـل نـازع اللّـه- عـزّ وجـلّ- رداءه، فإنّ رداءه الكبرياء وإزاره العزّة، ورجل شكّ في أمر اللّـه، والقنوط من رحمة اللّه)[1]

وقال : (إذا اسـتعطرت المـرأة فمـرّت على القـوم ليجـدوا ريحها فهي زانية)[2]

وقـال: (أيّمـا امـرأة أصـابت بخـورا فلا تشـهد معنـاه العشـاء الآخرة)[3]

وقال: (سيكون في آخر أمّتي نساء كاسيات عاريـات[4] على رؤوسهنّ كأسنمة البخت[5]، العنوهنّ، فإنّهنّ ملعونات)[6]

وقال: (صـنفان من أهـل النّـار لم أرهمـا. قـوم معهم سـياط كأذناب البقر يضربون بها النّاس، ونساء كاسيات عاريـات، مميلات مائلات، رؤوسهنّ كأسنمة البخت المائلة. لا يدخلن الجنّة ولا يجدن ريحها. وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)[7]

1() رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

2() رواه أبو داود والنسائي والترمذي، وقال: حسن صحيح. والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

3() رواه أبو داود والنسائي.

4() كاسيات عاريات: يعني تستر بعض بدنها وتكشف بعضـه إظهـارا لجمالهـا ونحـوه، وقيـل معناه: تلبس ثوبا رقيقا يصف لون بدنها.

5() البخت: كلمة معربة ومعناها الإبل الخراسـانية لأنهـا تنتج من بين عربيـة وفـالج، ومعـنى رؤوسهن كأسنمة البخت أي يكبرنها ويعظمنها بلف عصابة أو عمامة وغيرها.

6() رواه الطبراني في الصغير.

7() رواه مسلم.

وجاءت امرأة إلى رسول اللّٰه تبايعه على الإسلام فقال: (أبايعك على أن لا تشركي باللّه شيئا، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحي ولا تبرّجي تبرّج الجاهليّة الأولى)[8]

***

بقينا مع ابن حزم أياما معدودات يحدثنا فيها عن مرض (الفحشاء)، ويستعمل في التنفير عنه كل ما آتاه الله من العلم والحكمة.. وبعد أن رأى أن المحيطين به قد فقهوا عنه ما أراد أن يبلغهم إياهم ويدربهم عليه، طلب منهم أن يسيروا للقسم السابع.

8() رواه أحمد، ونحوه عند النسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح..

سابعا ـ العدوان

بعد أن انتهينا من الدراسة في القسم السادس، وبعد أن رأيت تأثير التعاليم التي بثها ابن حزم في نفوس السامعين، سرت مع أهل السوق إلى القسم السابع، وكان اسمه (قسم العدوان)، وقد عرفنا أن شيخه رجل يقال له (أبو الحسن الماوردي)[1]، وقد علمنا أن له كتابات مهمة في علم الأخلاق مثل (أدب الدنيا والدين)، و(نصيحة الملوك)، و(تسهيل النظر وتعجيل الظفر)

وقد صادف دخولنا عليه أن رأيناه في غرفة مظلمة لا نكاد نرى فيها شيئا، وقد أحاط به جمع قد أغلقوا أعينهم، واستغرقوا في حديثه استغراقا تاما، وكأنهم يبصرونه ولا يسمعونه، ولذلك لم يفطوا لكل تلك الجلبة التي أحدثناها بدخولنا..

ومما لا أزال أذكره من حديثه قوله[2]: لقد مررتم على الميزان ورأيتم هوله وخطره، وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان، ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)﴾ (الأعراف)، ومن :﴿.. ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104)﴾ (المؤمنون)، و﴿ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)﴾ (القارعة)

واعلموا بعد هذا أنه لا ينجو من خطر ذلك الميزان الدقيق إلا

---

[1] أشير به إلى علي بن محمد بن حبيب، أبي الحسن البصري ثم البغدادي، الماوَرْدي (364 ـ 450 هـ)، المُلَقّب بـ (أقضى القضاة)، ولي القضاء ببلدان شتّى، ثم سكن بغداد، وكان من وجوه فقهاء الشافعية، وللماوردي مصنّفات في الفقه والأُصول والتفسير والأدب، منها: الحاوي، النكت في تفسير القرآن، الأحكام السلطانية، الاقناع، مختصر في الفقه، أعلام النبوّة، أدب الدنيا والدين، وقد اخترناه هنا لأجل كتبه في الأخلاق التي ذكرناها في المتن.

[2] ذكر أبو حامد الغزالي هذه الموعظة المطولة في كتاب ذكر الموت من إحياء علوم الدين، وقد نقلناها هنا بالتصرف الذي ألفناه في هذه السلسلة.

من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته، وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا، ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه وبطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة.

فمن فعل هذا، فإنه يدخل الجنة بغير حساب، أما إن سولت له نفسه الأمارة بالسوء فمات قبل رد المظالم، فإن خصماءه سيحيطون به فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلببه، هذا يقول ظلمتنى، وهذا يقول شتمتنى، وهذا يقول استهزأت بى، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوؤنى، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك، وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى، وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى.

فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم، وأحكموا فى تلابيبك أيديهم، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم، ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)﴾ (غافر)، فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال :﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ

لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَـرُوا مَكْـرَهُمْ وَعِنْـدَ اللَّهِ مَكْـرُهُمْ وَإِنْ كَـانَ مَكْـرُهُمْ لِتَـزُولَ مِنْـهُ الْجِبَـالُ (46) (إبراهيم)

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضـك بـأعراض النـاس وتناولـك أموالهم، ومـا أشـد حسـراتك فى ذلـك اليـوم إذا وقـف ربـك على بسـاط العـدل وشـوفهت بخطـاب السياسـة، وأنت مفلس فقـير عاجز مهين لا تقـدر على أن تـرد حقـا أو تظهـر عـذرا، فعنـد ذلـك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك، وتنقل إلى خصـمائك عوضـا عن حقوقهم.

اسمعوا إلى رسول الله وهو يحدثنا عن ذلـك اليـوم، قـال: (أتــدرون مــا المفلس؟) قــالوا: المفلس فينــا من لا درهم لــه ولا متـاع. فقـال: (إنّ المفلس من يـأتي يـوم القيامـة بصـلاة وصـيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكـل مـال هـذا، وسـفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسـناته وهـذا من حسـناته، فإن فـنيت حسـناته قبـل أن يقضـى مـا عليـه أخـذ من خطايـاهم، فطرحت عليه، ثمّ طرح في النّار)(1)

فانظر إلى مصـيبتك فى مثـل هـذا اليـوم إذ ليس يسـلم لـك حسـنة من آفـات الريـاء ومكايـد الشـيطان، فـإن سـلمت حسـنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك، فكيف ببقية السيئات من أكـل الحـرام والشــبهات والتقصــير فى الطاعــات، وكيــف ترجــو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء فقـد حـدث أبـو ذر أن رسول الله رأى شاتين تنتطحان فقال: (يا أبا ذر أتــدرى فيم ينتطحان) قلت: لا قال: (ولكن الله يـدرى، وسيقضـى بينهمـا يـوم القيامة)(2)

فكيـف بـك يـا مسـكين فى يـوم تـرى صـحيفتك خاليـة عن حسنات طال فيهـا تعبـك، فتقـول أين حسـناتى، فيقـال نقلت إلى

(1) رواه مسلم.

(2) رواه أحمد.

صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصبك، واشتد بسبب الكف عنها عناؤك، فتقول يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط، فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

حدث رسول الله قال: (إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب، ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك، بالمحقرات وهى الموبقات، فاتقوا الظلم ما استطعتم، فإن العبد ليجىء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه، فما يزال عبد يجىء فيقول: رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة، فيقول: امح من حسناته، فما يزال كذلك حتى لا يبقى من حسناته شىء، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا)[1]، وكذلك الذنوب.

ولما نزل قوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) (الزمر)، قال الزبير: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب، قال: (نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه)[2]

فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة، ولا يتجاوز فيه عن لطمة، ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم، حدث رسول الله قال: (يحشر الله العباد عراة غبرا بهما)، قيل: ما بهما؟ قال: (ليس معهم شىء، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه، حتى

[1] رواه أحمد والبيهقى فى الشعب دون ذكر المثل، وأول الحديث رواه مسلم مختصرا من حديث جابر: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم)

[2] رواه أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح.

اللطمة) قيل: وكيف، وإنما نأتي الله عز و جـل عـراة غـبرا بهمـا؟ فقال: (بالحسنات والسيئات)[1]

فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخـذ أمـوالهم، والتعـرض لأعراضهم، وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق فى معاشرتهم، فإن مـا بين العبـد وبين اللـه خاصـة فـالمغفرة إليـه أسـرع، ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليـه اسـتحلال أربـاب المظـالم فليكثر من حسـناته ليـوم القصـاص، ويسـر ببعض الحسـنات بينـه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى، فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمـنين فى دفع مظالم العباد عنهم.

فتفكـر الآن فى نفسـك إن خلت صـحيفتك عن المظـالم، أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل الفضـاء، وقـد خلـع عليـك خلعـة الرضـا، وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء، وبنعيم لا يدور بحواشـيه الفنـاء، وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا، وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر.

فتـوهم تبخـترك بين الخلائـق رافعـا رأسـك خاليـا عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم وبـرد الرضـا يتلألأ من جبينـك، وخلـق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونـك فى حسـنك وجمالك، والملائكـة يمشـون بين يـديك ومن خلفـك وينـادون على رءوس الأشـهاد هـذا فلان بن فلان رضـى اللـه عنـه وأرضـاه وقـد سعد سعادة لا يشـقى بعـدها أبـدا، أفـترى أن هـذا المنصـب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الـدنيا بريائـك ومداهنتك وتصنعك وتزينك، فإن كنت تعلم أنه خير منه، بل لانسبة له إليه فتوسـل إلى إدراك هـذه الرتبـة بـالإخلاص الصـافى والنيـة الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به.

وإن تكن الأخرى، والعياذ بالله، بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينـة وهى عنـد اللـه عظيمـة فمقتـك لأجلهـا فقـال: (عليك لعنتى يا عبد السوء، لا أتقبل منك عبادتك)، فلا تسـمع هـذا

[1] () رواه أحمد بإسناد حسن.

النداء إلا ويسود وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى، فيقولون: (وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين)، وعند ذلك تنثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها، فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك، وأنت تنادى بالويل والثبور، وهم يقولون لك: (لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا)، وتنادى الملائكة ويقولون: (هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه، فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة فى قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم)

فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة، ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم.

***

ما إن وصل الماوردي من حديثه إلى هذا الموضع حتى ارتمى جميع أصحابي من أهل السوق على الأرض يبكون ويصرخون.. فالتفت إلينا الماوردي، وقال: مرحبا بكم.. لقد كنت في انتظاركم.. اعذروني إن لم أستقبلكم بما يليق بكم، فإني لم أفطن لدخولكم.

قال رجل منا: كفى بموعظتك مستقبلا لنا، فقد حركت منا ما كان ساكنا، وأحيت منا ما كان ميتا.. وقد جئناك لعلك تدلنا على الطريق الذي نتطهر به من الآثام التي هوت بحياتنا إلى درك الجحيم.

قال آخر: لقد عرفنا من هذه المدرسة الطيبة أن كل ما حل بنا ثمار لبذور ذنوبنا..

قال آخر: فعلمنا من علوم قسمك ما يطهرنا من العدوان الذي ملأ حياتنا ظلمات.

قال الماوردي: صدقتم.. فليس كالعـدوان ظلمـة.. لقـد ذكـر رسـول اللـه ذلـك، فقـال: (إيّـاكم والشّـحّ فإنّـه أهلـك من كـان قبلكم، أمرهم بالظّلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وإيّاكم والظّلم، فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامـة، وإيّاكم والفحش فإنّ اللّه لا يحبّ الفحش ولا التّفحّش)، فقام إليـه رجل فقال: يا رسول اللّه، أيّ المسلمين أفضل؟ قـال: (من سـلم المسلمون من لسانه ويده)[1]

قال رجل منا: لقد علمنا أصحابك من الأسـاتذة أصـول الآثـام التي تنبني عليها فروعها.. فما أصول العدوان؟

قال الماوردي: سبعة.. من وقع فيها جميعـا كـان عاتيـا جبـارا ظالما.. ومن وقع في بعضها كان له من الإثم بقدر ما له منها.

قال الرجل: فما هي؟

قال الماوردي: سأجعلكم أنتم الذين تكتشفونها.. لقد ورد في الحديث أن رسول الله خطب النّاس يوم النّحر، فقـال: (يـا أيّهـا النّاس، أيّ يوم هـذا؟) قـالوا: يـوم حـرام. قـال: (فـأيّ بلـد هـذا؟) قالوا: بلد حرام. قال: (فأيّ شهر هذا؟) قـالوا: شـهر حـرام. قـال: (فإنّ دماءكم وأمـوالكم وأعراضـكم عليكم حـرام كحرمـة يـومكم هذا، في بلـدكم هـذا، في شـهركم هـذا). فأعادهـا مـرارا. ثمّ رفـع رأسه، فقال: (اللّهمّ هل بلّغت؟ اللّهمّ هل بلّغت؟)

قال ابن عبّاس: (فو الّذي نفسي بيده، إنّها لوصـيّته إلى أمّتـه فليبلّغ الشّاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقـاب بعض)[2]

التفت الماوردي إلى الجمـع، وقـال: مـا هي أصـول العـدوان التي ذكرها رسول الله في هذا الحديث؟

قال رجل منا: ذلك واضح.. فقد ذكـر رسـول اللـه الاعتـداء على الدماء، وعلى الأموال، وعلى الأعراض.

1() رواه أحمد وأبو داود.

2() رواه البخاري ومسلم.

قال الماوردي: وورد في سورة القلم قوله تعالى : مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) (القلم)، وفي سورة الماعون: وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7) (الماعون)

قال الرجل: هاتان الآيتان تذكران الاعتداء بالمنع..

قال الماوردي: صدقت.. فقد لا يعتدي الظالم على مالك، ولكنه يمنعك ماله مع أنك محتاج إليه.. وهو لا يختلف عن سائر أنواع الاعتداء.

قال الرجل: عرفنا الرابع.. فما الخامس؟

قال الماوردي: لقد ورد في الحديث قوله :(ما من امرئ يخذل مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلّا خذله اللّه في موطن يحبّ فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلّا نصره اللّه في موطن يحبّ فيه نصرته)[1]

قال الرجل: هذا الحديث يذكر الاعتداء بالخذلان.

قال الماوردي: صدقت.. فقد لا يعتدي الظالم على نفسك، ولكنه يحرمك من نصرته، فيمكن أعداءك منك، ويكون بذلك عونا منهم عليك.

قال الرجل: عرفنا الخامس.. فما السادس؟

قال الماوردي: لقد ورد في الحديث قوله : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التّقوى هاهنا.ويشير إلى صدره ثلاث مرّات. بحسب امرىء من الشّرّ أن يحقر أخاه المسلم. كلّ المسلم على المسلم حرام. دمه وماله وعرضه)[2]

قال الرجل: هذا الحديث يضيف إلى ما سبق الاحتقار.

قال الماوردي: أجل.. فقد لا يعتدي الظالم على عرضك،

1() رواه أبو داود والطبراني في الأوسط واسناده حسن.

2() رواه البخاري ومسلم.

ولكنه يضعك في سلة مهملاته، فلا يهتم بك، بـل يحتقـرك ويسـخر منك.

قال الرجل: عرفنا السادس.. فما السابع؟

قال الماوردي: لقد نص عليه قوله : (لا تحـلّ الهجـرة فـوق ثلاثة أيّام، فإن التقيا فسلّم أحدهما فردّ الآخـر اشـتركا في الأجـر، وإن لم يـردّ بـرىء هـذا من الإثم، وبـاء بـه الآخـر، وإن ماتـا وهمـا متهاجران لا يجتمعان في الجنّة)(1)

قال الرجل: هذا الحديث يضيف إلى ما سبق الهجر..

قال الماوردي: وبهذا تكتمـل السـبع الـتي يجتمـع فيهـا جميـع العدوان.

قلنا: عرفنا الأصول.. فحدثنا عن تفاصيلها.

الدماء:

قال الماوردي: بم تريدون أن أبدأ؟

قلنا: حدثنا عن الدماء.. فلا شك أنها أعظم العدوان عدوانا.

قال الماوردي: صدقتم.. وقد ورد في الحـديث قولـه : (أوّل ما يقضى بين النّاس في الدّماء)(2)، وقال: (لن يزال المـؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما)(3)

قلنا: لم؟.. لم كان الأمر كذلك؟

قال الماوردي: لكرامة الإنسان عند الله، فالإنسان بنيان اللـه ملعون من هدمه، وقد روي في الحـديث أن رسـول اللّـه صـعد المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: (يا معشـر من قـد أسـلم بلسـانه ولم يفض الإيمان إلى قلبـه لا تـؤذوا المسـلمين، ولا تعيّـروهم، ولا

(1) رواه الطبراني في الأوسط والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري.

تتّبعوا عوراتهم، فإنّه من تتبّع عورة أخيه المسلم تتبّع اللّه عورتــه، ومن تتبّع اللّه عورته يفضحه ولو في جوف رحلـه قـال: ونظـر ابن عمر يوما إلى الـبيت أو إلى الكعبـة، فقـال: مـا أعظمـك! وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند اللّه منك)(1)

وفي حديث آخر قـال : (لـزوال الـدّنيا أهـون عنـد اللّـه من قتل رجل مسلم)(2)

ولهذا، فإن أول مـا ذكرتـه الملائكـة عنـدما أخبرهـا اللـه بأنـه جاعـل في الأرض خليفــة: قَــالُوا أَتَجْعَــلُ فِيهَــا مَنْ يُفْسِــدُ فِيهَــا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَـالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَـا لَا تَعْلَمُونَ (30) (البقرة)

ومن الوعيد الـوارد في قتـل النفس بغـير حـق قولـه تعـالى: وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَـأً وَمَنْ قَتَـلَ مُؤْمِنـاً خَطَـأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُـؤْمِنٌ فَتَحْرِيـرُ رَقَبَـةٍ مُؤْمِنَـةٍ وَإِنْ كـانَ مِنْ قَــوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثـاقٌ فَدِيَـةٌ مُسَـلَّمَةٌ إِلى أَهْلِـهِ وَتَحْرِيــرُ رَقَبَـةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَـهْرَيْنِ مُتَتـابِعَيْنِ تَوْبَـةً مِنَ اللَّهِ وَكـانَ اللَّهُ عَلِيمـاً حَكِيمـاً (92) وَمَنْ يَقْتُـلْ مُؤْمِنـاً مُتَعَمِّداً فَجَـزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَـدَّ لَـهُ عَـذاباً عَظِيمـاً (93) (النساء)، وقوله: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُـوا أَوْلادَهُمْ سَـفَهاً بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَـدِينَ (140) (الأنعام)

بل قد قرن الله قتل النفس بالشرك بالله، فقال: وَالَّذِينَ لا يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلهـاً آخَـرَ وَلا يَقْتُلُـونَ النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (68) (الفرقان)

والنهي عن قتل النفس وصية من الوصايا الكبرى الواردة في سورة الأنعام، قال تعالى: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوالِـدَيْنِ إِحْسـاناً وَلا تَقْتُلُـوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ

(1) رواه الترمذي.

(2) رواه النسائي.

نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) (الأنعام)

ومثل ذلك هو وصية من الوصايا الكبرى الواردة في سورة الإسراء، قال تعالى: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (31) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا (32) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33) (الإسراء)

وقد أخبر أن قتل النفس كبيرة من أكبر الكبائر، بل قد قرنها بالشرك بالله، قال : (أكبر الكبائر الإشراك باللّـه، وقتل النّفس، وعقوق الوالدين، وقول الزّور- أو قال وشهادة الزّور-)[1]

وفي حديث آخر اعتبر قتاله كفرا، فقال :(سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)[2]، وقال: (من حمل علينا السّلاح فليس منّا)[3]

وأخبر عن الشدة التي يعانيها القاتل يوم القيامة، فقال: (يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده. وأوداجه تشخب دما يقول: يا ربّ قتلني هذا حتّى يدنيه من العرش)[4]

قال: كل قتل محرم.. لا تفريق بين نفس ونفس:

فأول نفس محرمة هي نفس صاحبها، ولهذا وردت النصوص المتشددة في تحريم قتل النفس، قال : (من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجّأ[5] بها في بطنه في نار جهنّم خالدا مخلّدا فيها أبدا، ومن شرب سمّا فقتل نفسه فهو يتحسّاه

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه أحمد.

في نار جهنّم خالدا مخلّدا فيها أبدا. ومن تردّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جهنّم خالدا مخلّدا فيها أبدا)(1)

وقال: (كان برجل جراح فقتل نفسه، فقال اللّه: بدرني عبدي بنفسه، حرّمت عليه الجنّة)(2)

ومن النفوس المحرمة نفس المؤمن، وقد ورد في الحديث قوله :(كلّ ذنب عسى اللّه أن يغفره، إلّا من مات مشركا، أو مؤمن قتل مؤمنا متعمّدا)(3)

حتى المؤمن الذي أسلم تقية تحت السيف نهى رسول الله عن قتله، ففي الحديث عن المقداد أنّه قال: يا رسول اللّه، إن لقيت كافرا فاقتتلنا فضرب يدي بالسّيف فقطعها ثمّ لاذ بشجرة وقال: أسلمت للّه، آقتله بعد أن قالها؟ قال رسول اللّه : (لا تقتله)، قال: يا رسول اللّه، فإنّه طرح إحدى يديّ ثمّ قال ذلك بعد ما قطعها آقتله؟ قال: (لا، فإن قتلته فإنّه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته الّتي قال)(4)

ومن النفوس المحرمة **نفس المعاهد**، قال :(من أمّن رجلا على دمه فقتله، فإنّه يحمل لواء غدر يوم القيامة)(5)

وقال: (من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنّة. وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما)(6)

بل **من النفوس المحرمة نفوس الحيوانات إذا قتلت**

5() يتوجأ: أي يطعن وهي رواية مسلم، وعبارة البخاري يجأ بها أي يطعن أيضا والأصل في يجأ يوجأ.

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه ابن ماجة.

6() رواه البخاري.

لغير غرض، ففي الحديث عن عبد الله بن عمر قال: كنا مع النبي في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش، فلما جاء رسول الله قال:(من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها)

وعنه أنه مرّ بفتيان من قريش يترامون طيراً أو دجاجة، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضا[1].

الأموال:

قلنا: عرفنا الأول.. فحدثنا عن الثاني.. حدثنا عن العدوان على الأموال.

قال الماوردي: لقد ورد في النصوص المقدسة الكثيرة تعظيم حرمة الأموال، وبيان أنها لا تقل عن حرمة النفوس.

قلنا: لم كان الأمر كذلك؟

قال: لأنه لا يمكن أن تستقيم الحياة من دون أموال، فالمال هو قوام الحياة، كما قال تعالى : (4) وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (5) (النساء)

ولذلك فإن سلب المال يكاد يكون سلبا للحياة نفسها.

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الفروع المرتبطة بهذا.

قال: لقد ورد في النصوص المقدسة، وفي الشريعة المنبنية عليها حرمة كل أخذ لأموال الناس من غير رضا منهم، ومن غير الطرق المشروعة التي أذن الله فيها..

قلنا: ما هذه الطرق؟

قال: كثيرة لا يمكن حصرها في هذا المجلس.

1() رواه البخاري ومسلم.

قلنا: فاذكر لنا من أمثلتها ما نستدل به على غيرها.

قال: من ذلك - مثلا- **السرقة**[1]، فقد ورد التشديد فيها، بل قد نص القرآن على أن مرتبكها يعاقب بقطع يده، قال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39)﴾ (المائدة)

وكان من نصوص المبايعة التي يبايع بها رسول الله ﷺ أصحابه المبايعة على عدم السرقة، قال تعالى:﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) ﴾ (الممتحنة)

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا غيره.

قال: **التسول**[2].. فهو نوع آخر من أنواع السرقة.. ولذلك ورد في النصوص تحريم السؤال لغير المحتاج، ولغير العاجز، ففي الحديث قال ﷺ: (لا تزال المسألة بأحدكم حتّى يلقى اللّه، وليس في وجهه مزعة لحم)[3]

وقال: (ليس المسكين بهذا الطّوّاف الّذي يطوف على النّاس، فتردّه اللّقمة واللّقمتان، والتّمرة والتّمرتان). قالوا: فما المسكين يا رسول اللّه؟ قال: (الّذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدّق عليه، ولا يسأل النّاس شيئا)[4]

وعن ثوبان قال: قال رسول اللّه ﷺ: (من يكفل لي أن لا

1() سبق ذكر تعريفها وأنواعها والحد المرتبط بها في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

2() التّسوّل: طلب الصّدقة من الأفراد في الطّرق العامّة، والمتسوّل: الشّخص الّذي يتعيّش من التّسوّل ويجعل منه حرفة له ومصدرا وحيدا للرّزق (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (37) للدكتور أحمد زكي بدوي)

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه البخاري ومسلم.

يسأل النّاس شيئا وأتكفّل له بالجنّة؟) فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحدا شيئا)[1]

وعن قبيصة بن مخارق قال: تحمّلت حمالة[2]، فأتيت رسول اللّه أسأله فيها. فقال: (أقم حتّى تأتينا الصّدقة فنأمر لك بها) قال: ثمّ قال: (يا قبيصة! إنّ المسألة لا تحلّ إلّا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتّى يصيبها ثمّ يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتّى يصيب قواما من عيش. ورجل أصابته فاقة حتّى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة. فحلّت له المسألة حتّى يصيب قواما من عيش فما سواهنّ من المسألة، يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا)[3]

وعن أبي كبشة الأنماريّ أنّه سمع رسول اللّه يقول: (ثلاث أقسم عليهنّ وأحدّثكم حديثا فاحفظوه) قال: (ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلّا زاده اللّه عزّا، ولا فتح عبد باب مسألة إلّا فتح اللّه عليه باب فقر، وأحدّثكم حديثا فاحفظوه: إنّما الدّنيا لأربعة نفر: عبد رزقه اللّه مالا وعلما فهو يتّقي فيه ربّه، ويصل فيه رحمه ويعلم للّه فيه حقّا، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه اللّه علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النّيّة يقول: لو أنّ لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيّته فأجرهما سواء. وعبد رزقه اللّه مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط في ماله بغير علم: لا يتّقي فيه ربّه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم للّه فيه حقّا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه اللّه مالا ولا علما فهو يقول: لو أنّ لي مالا لعملت فيه بعمل فلان. فهو نيّته فوزرهما سواء)[4]

وعن حكيم بن حزام قال: سألت النّبيّ فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ قال: (إنّ هذا المال

1() رواه أحمد وأبو داود.

2() الحمالة بفتح الحاء: الدية والغرامة التي يحملها الإنسان بسبب الصلح بين الناس.

3() رواه مسلم.

4() رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس[1] لم يبارك فيه وكان كالّذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السّفلى)[2]

وعن سعد قال: كان رسول اللّه يعودني عام حجّة الوداع من وجع اشتدّ بي، فقلت: إنّي قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال، ولا يرثني إلّا ابنة لي، أفأتصدّق بثلثي مالي؟ قال: (لا). فقلت: بالشّطر؟ فقال: (لا). ثمّ قال: (الثّلث، والثّلث كبير- أو كثير-. إنّك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون النّاس[3]، وإنّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللّه إلّا أجرت بها حتّى ما تجعل في في امرأتك) [4]

وعن عوف بن مالك قال: كنّا عند رسول اللّه تسعة أو ثمانية أو سبعة. فقال: (ألا تبايعون رسول اللّه؟) وكنّا حديث عهد ببيعة. فقلنا: قد بايعناك يا رسول اللّه ثمّ قال: (ألا تبايعون رسول اللّه؟) فقلنا: قد بايعناك يا رسول اللّه. ثمّ قال: (ألا تبايعون رسول اللّه؟) قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول اللّه! فعلام نبايعك؟ قال: (على أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا، الصّلوات الخمس، وتطيعوا (وأسرّ كلمة خفيّة)، ولا تسألوا النّاس شيئا، فلقد رأيت بعض أولئك النّفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إيّاه)[5]

قلنا: **فلم تشددت الشريعة مع المتسولين هذا التشدد**؟

قال الماوردي: لأن المتسول لا ينفكّ عن ثلاثة أمور محرّمة:

أولها: إظهار الشّكوى من اللّه تعالى، إذ السّؤال إظهار

1() بإشراف نفس: أي بتطلع وطمع.

2() رواه مسلم.

3() يتكففون الناس: أي يسألون الناس بمد أكفهم اليهم.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه مسلم.

للفقر، وذكر لقصور نعمة اللّه تعالى عنه وهو عين الشّكوى.

والثّاني: أنّ فيه إذلال السّائل نفسه لغير اللّه تعالى، وليس للمؤمن أن يذلّ نفسه لغير اللّه، بل عليه أن يذلّ نفسه لمولاه، فإنّ فيه عزّه.. فأمّا سائر الخلق فإنّهم عباد أمثاله، فلا ينبغي أن يذلّ لهم إلّا لضرورة، وفي السّؤال ذلّ للسّائل بالإضافة إلى إيذاء المسئول.

والثّالث: أنّه لا ينفكّ عن إيذاء المسئول غالبا، لأنّه ربّما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السّائل، أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربّما استحيا وتأذّى في نفسه بالمنع، إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسّائل هو السّبب في الإيذاء، والإيذاء حرام إلّا بضرورة[1].

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا غيره.

قال: **الرشوة**.. فإن فيها استيلاء على حقوق الآخرين بطرق غير مشروعة.. ولهذا اعتبرها القرآن الكريم من أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188) (البقرة)، أي لا تدلوا بأموالكم إلى الحكّام: أي لا تصانعوهم بها ولا ترشوهم ليقتطعوا لكم حقّا لغيركم وأنتم تعلمون أنّ ذلك لا يحلّ لكم.

وفي الحديث قال : (الرّاشي والمرتشي في النّار)[2]

وقال: (ما من قوم يظهر فيهم الرّبا إلّا أخذوا بالسّنة[3] وما من قوم يظهر فيهم الرّشا إلّا أخذوا بالرّعب)[4]

[1] إحياء علوم الدين.

[2] رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

[3] السّنة: القحط والجدب.

[4] رواه أحمد.

وقال: (من ولي عشرة فحكم بينهم بما أحبّوا، أو بمـا كرهـوا جيء به مغلولة يده، فإن عـدل، ولم يـرتش، ولم يحـف فـكّ اللّـه عنه، وإن حكم بغير مـا أنـزل اللّـه وارتشـى، وحـابى فيـه. شـدّت يساره إلى يمينه ثمّ رمي به في جهنّم، فلم يبلغ قعرهـا خمسـمائة عام)(1)

وقـال: (من شـفع لأخيـه بشـفاعة، فأهـدى لـه هديّـة عليهـا، فقبلها، فقد أتى بابا عظيما من أبواب الرّبا)(2)

وعن عبـد اللّـه بن عمـرو قـال: لعن رسـول اللّـه الرّاشـي والمرتشي(3).

وعن أبي حميد السّاعديّ قال: اسـتعمل رسـول اللّـه رجلا من الأسد يقال له ابن اللّتبيّة، فلمّا قدم قال: هذا لكم وهذا أهـدي لي. قال: فقام رسول اللّه على المنبر، فحمد اللّه وأثـنى عليـه. وقال: (ما بال عامل أبعثه فيقـول: هـذا لكم وهـذا أهـدي لي! أفلا قعـد في بيت أبيـه أو في بيت أمّـه حتّى ينظـر أيهـدى إليـه أم لا؟ والّذي نفس محمّد بيده، لا ينال أحد منكم منها شيئا إلّا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شـاة تيعر). ثمّ رفع يديه حتّى رأينا عفـرتي إبطيـه. ثمّ قـال: (اللّهمّ هـل بلّغت؟) مرّتين)(4)

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا غيره.

قال: **الاحتكار**.. وهو أن يضيق على الناس بأن يخزن السـلع الضرورية ليرفع أسعارها، فإذا ما ارتفعت باعهـا لهم، وقـد قـال مبينا جريمة المحتكر باحتكاره الذي أداه إليه جشعه: (لا يحتكـر إلّا خاطىء)(5)

1() رواه الحاكم والطبراني في الأوسط والكبير ورجاله ثقات.

2() رواه أبو داود.

3() رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه مسلم.

وقال: (من احتكر على المسلمين طعاما ضربه اللّه بالجذام والإفلاس)[1]

وقال: (من احتكر طعاما أربعين ليلة، فقد بريء من اللّه تعالى وبريء اللّه تعالى منه، وأيّما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمّه اللّه تعالى)[2]

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا غيره.

قال: **التطفيف**.. وهو الاستيفاء من النّاس عند الكيل أو الوزن، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم.. ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير الّتي يتعامل بها النّاس.

وقد ورد الوعيد الشديد لمن يقع في هذا، قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (6)﴾ (المطففين)

بل إن الله تعالى أخبر أنه أرسل رسولا من رسل الله الكرام جل رسالته النهي عن التطفيف في الموازين والعبث بها، قال تعالى: ﴿ وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85)﴾ (الأعراف)، وقال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181)﴾ (الشعراء)

قال رجل منا: لقد ظللت متعجبا فترة من هذا..

قال الماوردي: لا تتعجب.. فالكون الذي خلقه الله قائم على

---

[1] رواه أحمد وابن ماجة.

[2] رواه أحمد.

موازين دقيقة.. ولا يمكن أن يستقيم ولا أن يستقيم أي شيء فيه من دون رعاية تلك الموازين، قال تعالى : وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9) (الرحمن)

ومن تعلم أن يخدع في موازين الطعام، فسيخدع في جميع الموازين.

ولهذا أخبر عن الوعيد الشديد الذي ينال المطففين الذين اختلت عندهم الموازين، فقال: (خمس بخمس، قيل: يا رسول اللّه وما خمس بخمس؟ قال: ما نقض قوم العهد إلّا سلّط اللّه عليهم عدوّهم، وما حكموا بغير ما أنزل اللّه إلّا فشا فيهم الموت، ولا منعوا الزّكاة إلّا حبس عنهم القطر، ولا طفّفوا المكيال إلّا حبس عنهم النّبات، وأخذوا بالسّنين)[1]

وقال: (إذا وزنتم فأرجحوا)[2]

وقال مخاطبا أصحاب الكيل والوزن: (إنّكم قد ولّيتم أمرا فيه هلكت الأمم السّالفة قبلكم)[3]

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا غيره.

قال الماوردي: **التّناجش**.. ذلك الذي ورد في قوله (إيّاكم والظّنّ فإنّ الظّنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللّه إخوانا)[4]

وقوله : (لا يتلقّى الرّكبان لبيع، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضر لباد[5]، ولا تصرّوا الإبل

1() رواه الطبراني في الكبير.

2() رواه ابن ماجة.

3() رواه الترمذي والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الترمذي: روي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا.

4() رواه البخاري ومسلم.

والغنم(1)، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النّظرين بعد أن يحلبهـا، فإن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردّها وصاعا من تمر)(2)

قلنا: ما التناجش؟

قال الماوردي: للتناجش صور عديدة ذكرهـا العلمـاء .. منهـا أن يشترك النّاجش والبائع للسّلعة في خداع المشتري بأن يتواطـأ كلاهما على ذلك..

ومنها أن يقع الإغراء بدون علم البائع بأن يتطوّع النّاجش من تلقاء نفسه برفع ثمن السّلعة..

ومنها انفراد البائع بعمليّة الإغراء بأن يزعم أنّه اشـترى بـأكثر ممّا اشتراها به، وربّما حلف على ذلـك ليغـرّ المشـتري، وقـد يقـع ذلك منه بأن يخبر بأنّه أعطي في السّلعة ما لم يعط..

ومنهـا أن يـأتي شـخص إلى وليّ أمـر فتـاة وقـد حضـر من يخطبها فيذكر مهرا أعلى ليغرّ الخاطب بذلك، أو يذمّها..

ومنهـا أن يمـدح شـخص سـلعة مـا كي تبـاع، أو يـذمّها كي لا تنفق على صاحبها، وذلك كما في الإعلانات المغرضة الّتي لا تتّفق مع الواقع.

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا غيره.

قال المـاوردي: **الميسر**(3).. ذلـك الـذي ورد النهي المشـدد عنه في قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِـيرٌ وَمَنـافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمـا أَكْبَـرُ مِنْ نَفْعِهِمـا وَيَسْـئَلُونَكَ مـاذا

5() أي لا يكون الحاضر (ساكن الحضر) للبادي (ساكن البادية) سمسارا، أي يتقاضـى أجـرة منه ليبيع له بضاعته، ويجوز ذلك إذا كان البيع بدون أجرة. من باب النصيحة.

1() لا تصروا الإبل والغنم: من التصرية وهي الجمع، والمعـنى: لا تجمعـوا اللبن في ضـرعها عند إرادة بيعها حتى يعظم ضرعها فيظن المشتري أن كثرة لبنها عادة لها.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() الميسر: هو القمار بأيّ نـوع كـان، مثـل النّـرد والشّـطرنج أو الفصـوص، أو الكعـاب، أو البيض، أو الجوز، أو الحصى، أو ما شابه ذلك، وهو من أكـل أمـوال النّـاس بالباطـل (الكبـائر للذهبى: 88)

يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) (البقرة)، وقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) (المائدة)

وقد ورد تحريمه بكل أنواعه في قوله : (إيّاكم وهاتان الكعبتان[1] الموسومتان اللّتان تزجران زجرا؛ فإنّها ميسر العجم)[2]

وقوله: (الخيل ثلاثة: ففرس للرّحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشّيطان، فأمّا فرس الرّحمن، فالّذي يرتبط في سبيل اللّه عزّ وجلّ فعلفه وبوله وروثه وذكر ما شاء اللّه، وأمّا فرس الشّيطان فالّذي يقامر عليه ويراهن، وأمّا فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فقر)[3]

وقوله: (مثل الّذي يلعب بالنّرد ثمّ يقوم فيصلّي مثل الّذي يتوضّأ بالقيح ودم الخنزير ثمّ يقوم فيصلّي)[4]

وقوله: (من حلف فقال في حلفه: واللّات والعزّى، فليقل: لا إله إلّا اللّه. ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدّق)[5]

وقوله: (من لعب بالنّردشير فكأنّما صبغ يده في لحم خنزير ودمه)[6]

قلنا: وعينا هذا.. فاذكر لنا غيره.

1() الكعبتان مثنى كعبة وهي الواحد من فصوص النرد.

2() رواه أحمد والطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح.

3() رواه أحمد ورجاله ثقات.

4() رواه أحمد وأبو يعلى وزاد (لا تقبل صلاته) والطبراني.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه مسلم.

قال: **الربا**. ذلك الذي حذرت منه مصادرنا المقدسة أشد التحذير.. قال تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (275) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276) (البقرة)

وقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) (آل عمران)

وأخبر الله تعالى أنه لخطورته كان محرما في الديانات السابقة، قال تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (160) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (161) (النساء)

وقد أخبر عن الشدة التي تنتظر المرابين في الدنيا والآخرة، فقال: (يأتي آكل الرّبا يوم القيامة مخبّلا يجرّ شقّيه، ثمّ قرأ: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ.. (275) (البقرة)[1]

وعن ابن مسعود أنه ذكر حديثا عن النّبيّ قال فيه: (ما ظهر في قوم الزّنا والرّبا إلّا أحلّوا بأنفسهم عذاب اللّه)[2]

وقال : (ما أحد أكثر من الرّبا إلّا كان عاقبة أمره إلى قلّة)[3]

وقد لعن رسول الله كل من رابى أو تعامل مع المرابين،

---

[1] رواه الطبراني والأصبهاني من حديث أنس، ونحوه عند ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

[2] رواه أبو يعلى بإسناد جيد، ورواه الحاكم وصححه.

[3] رواه ابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

فعن ابن مسعود قال: (آكل الرّبـا وموكلـه، وشـاهداه، وكاتبـاه إذا علمـوا بـه، والواشـمة والمستوشـمة للحسـن، ولاوي الصّـدقة، والمرتدّ أعرابيّا بعد الهجرة، ملعونون على لسان محمّد)(1)

وعن جابر قال: لعن رسول اللّه آكل الرّبا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء)(2)

الأعراض:

قلنا: عرفنا الثاني.. فحـدثنا عن الثـالث.. حـدثنا عن العـدوان على الأعراض.

قال الماوردي: لم يشتد دين من الأديان اشـتداد الإسـلام في بيان حرمة الأعراض.. قال : (إنّ من أربى الرّبـا الاسـتطالة في عرض المسلم بغير حقّ)(3)

وقـال: (لمّـا عـرج بي مـررت بقـوم لهم أظفـار من نحـاس يخمشون وجوههم وصدورهم)، فقلت: من هؤلاء يا جبريـل؟ قـال: (هؤلاء الّذين يأكلون لحوم النّاس، ويقعون في أعراضهم)(4)

وقـال: (من حمى مؤمنـا من منـافق بعث اللّـه ملكـا يحمي لحمه يـوم القيامـة من نـار جهنّم، ومن رمى مسـلما بشـيء يريـد شينه(5) به حبسه اللّه على جسر جهنّم حتّى يخرج ممّا قال)(6)

بل إن الله تعالى رتب العقوبات المشددة على من اسـتطال على أعـراض المسـلمين، فقـذفهم من غـير بينـة، قـال تعـالى: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَـةِ شُـهَداءَ فَاجْلِـدُوهُمْ

(1) رواه أحمد، وأبو يعلى، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحيهما.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه أحمد وأبو داود.

(4) رواه أحمد وأبو داود.

(5) شينه: أي عيبه وذمّه.

(6) رواه أبو داود.

ثَمانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ (7) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (8) وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) (النور)

هذا في العقوبات التشريعية أما العقوبات المقدرة عليهم من الله في الدنيا والآخرة مما لا يستطيع الحكام إيقاف تنفيذه، فقد نص عليه قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) (النور)

واعتبر القدح في الأعراض من أكبر الكبائر، ففي الحديث قال :(اجتنبوا السّبع الموبقات)، قيل: يا رسول اللّه وما هنّ؟ قال: (الشّرك باللّه، والسّحر، وقتل النّفس الّتي حرّم اللّه إلّا بالحقّ، وأكل مال اليتيم، وأكل الرّبا، والتّولّي يوم الزّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[1]

وأخبر أن حرمة الأعراض مقررة في جميع ديانات رسل الله، ففي الحديث أنّ يهوديّين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النّبيّ نسأله فقال: لا تقل نبيّ؛ فإنّه إن سمعها تقول نبيّ كانت له أربعة أعين، فأتيا النّبيّ فسألاه عن قول اللّه تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) (الإسراء)، فقال رسول اللّه :(لا تشركوا باللّه شيئا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم اللّه إلّا بالحقّ، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الرّبا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفرّوا من الزّحف، شكّ شعبة:

[1] رواه البخاري ومسلم.

وعليكم يا معشر اليهود خاصّة لا تعدوا في السّبت)، فقبّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنّك نبيّ. قال: (فما يمنعكما أن تسلما؟) قالا: إنّ داود دعا اللّه، أن لا يزال في ذرّيّته نبيّ، وإنّا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود)(1)

ولم تكتف الشريعة بهذا.. بل **إنها بينت حرمة كل ما يؤدي إلى التلاعب بالأعراض، فحرمت سوء الظن، والتجسس، والغيبة، والبهتان، وشهادة الزور.. وغيرها كثير.**

قلنا: فحدثنا عن **أولها**.. حدثنا عن **سوء الظن**(2).

قال الماوردي: سوء الظن هو بداية الشر، وهو الخطوة الأولى التي يخطوها من يريد أن ينتهك الأعراض، ولذلك ذكره القرآن في أول المحرمات المرتبطة بالأعراض، قال تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) (الحجرات)

ومثل ذلك قال : (إيّاكم والظّنّ، فإنّ الظّنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللّه إخوانا)(3)

فالظن السيء هو الذي يدفع صاحبه إلى التجسس، والتجسس يدعوه إلى الغيبة، والغيبة قد يبالغ فيها فتتحول إلى بهتان أو إفك، وهكذا يؤدي الشر بعضه إلى بعض، وينبت بعضه بعضا.

قلنا: عرفنا الأول.. فحدثنا عن **الثاني**.. حدثنا عن **التّجسّس**.

1() رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح.

2() سوء الظّنّ: هو اعتقاد جانب الشّرّ وترجيحه على جانب الخير فيما يحتمل الأمرين معا.

3() رواه مسلم.

قال الماوردي: التجسس هو الخطوة الثانية للشر، وهو الخطوة التي يخطوها من يريد أن ينتهك الأعراض، ولذلك ذكره القرآن قبل ذكره للغيبة.

وقد نهى عنه نهيا شديد، فقال: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من اتّبع عوراتهم يتّبع اللّه عورته، ومن يتّبع اللّه عورته يفضحه في بيته)[1]

وبما أن الأمراء يتعرضون له أكثر من غيرهم، فقد خصهم رسول الله بالنهي، فقال: (إنّ الأمير إذا ابتغى الرّيبة في النّاس أفسدهم)[2]

قلنا: عرفنا الثاني.. فحدثنا عن **الثالث**.. حدثنا عن **الغيبة**.

قال الماوردي: ألا يكفيكم في التحذير منها ذلك التشبيه الذي شبه الله به المغتاب حين قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) (الحجرات)

وفي الحديث قال : (من أكل لحم أخيه في الدّنيا قرّب له يوم القيامة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيّا فيأكله ويكلح ويصيح)[3]

وقال: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبّعوا عوراتهم، فإنّه من اتّبع عوراتهم يتّبع اللّه عورته، ومن يتّبع اللّه عورته يفضحه في بيته)[4]

وقال: (لمّا عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس

---

[1] رواه أبو داود.

[2] رواه أبو داود.

[3] قال ابن حجر: سنده حسن.

[4] رواه أبو داود.

يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يـا جبريـل؟ قـال: هؤلاء الّذين يأكلون لحوم النّاس ويقعون في أعراضهم)[1]

وقال: (من أكل برجل مسلم أكلة فإنّ اللّه يطعمه مثلهـا من جهنّم، ومن كسي ثوبـا برجـل مسـلم فـإنّ اللّـه يكسـوه مثلـه من جهنّم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإنّ اللّه يقـوم بـه مقـام سمعة ورياء يوم القيامة)[2]

وعن جابر قال: كنّا مـع النّـبيّ فـارتفعت ريح منتنـة، فقـال رسول اللّه : (أتدرون مـا هـذه الـرّيح؟ هـذه ريح الّـذين يغتـابون المؤمنين)[3]

ومرّ النّبيّ بقـبرين فقـال: (إنّهمـا ليعـذّبان ومـا يعـذّبان في كبير. أمّا أحدهما فيعذّب في البول وأمّا الآخر فيعـذّب في الغيبـة)[4]

وعن عائشة قالت: قلت للنّبيّ حسبك من صفيّة كذا وكذا- تعـني قصـيرة- فقـال: (لقـد قلت كلمـة لـو مـزجت بمـاء البحـر لمزجته). قـالت: وحكيت لـه إنسـانا، فقـال: (مـا أحبّ أنّي حكيت إنسانا وأنّ لي كذا وكذا)[5]

قلنا: عرفنا خطورة الغيبة، والعقوبة المرتبطة بهـا.. ولكنـا لم نعرف **حدها**؟

قال: لقد حدها رسول الله حين قال: (أتدرون مـا الغيبـة؟) قالوا: اللّـه ورسـوله أعلم. قـال: (ذكـرك أخـاك بمـا يكـره) قيـل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول، فقد

---

[1] رواه أحمد.

[2] رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[3] رواه أحمد وابن أبي الدنيا ورواة أحمد ثقات.

[4] رواه أحمد والطبراني بإسناد صحيح.

[5] رواه أحمد.

اغتبته. وإن لم يكن فيه فقد بهتّه)(6)

قال رجل منا: مـا دام الأمـر كمـا تقـول.. فهنيئـا للظـالمين.. فسيسطون ويظلمون من غير أن ينتقدهم أحد.

قال الماوردي: كيف تقول ذلك، وأنت تعلم أنه لا تقدس أمــة لا ينتقد فيها ظلمتها؟

قال الرجل: ولكن ذلك غيبة كما ذكرت.

قال الماوردي: للغيبة مجالها.. وهم الناس العاديون البسـطاء الذين لا ضرر منهم على أحد من الناس.. أمـا من تعـدى وظلم فلا غيبة فيه.

قال الرجل: فهناك **مستثنيات من الغيبة** إذن؟

قال الماوردي: أجل.. وقد ذكر العلماء ستة منها.

قال الرجل: فما هي؟

قال الماوردي: **أولها المتظلّم**، فيجوز للمظلــوم أن يتظلّم إلى السّـلطان والقاضـي وغيرهمـا ممّن لـه ولايـة، أو قـدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان بكذا.

وثانيها الاسـتعانة على تغيــير المنكــر، وردّ العاصــي إلى الصّواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالـة المنكـر: فلان يعمـل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك، ويكـون مقصـوده التّوصّـل إلى إزالـة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراما.

وثالثها الاستفتاء، فيقـول للمفـتي: ظلمـني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلان بكذا، فهـل لـه ذلـك؟ ومـا طـريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقّي، ودفع الظّلم؟ ونحو ذلك، فهـذا جـائز للحاجـة، ولكنّ الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شـخص، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنّه يحصـل بـه الغـرض من غـير تعـيين، ومع ذلك، فالتّعيين جائز.

---

(6) رواه مسلم.

ورابعها تحذير المسلمين من الشّرّ ونصيحتهم، ومن ذلك جرح المجـروحين من الـرّواة والشّـهود، وذلـك جـائز بإجمـاع المسـلمين، بـل واجب للحاجـة.. ومنهـا: المشـاورة في مصـاهرة إنســان، أو مشــاركته، أو إيداعــه، أو معاملتــه، أو غــير ذلــك، أو مجاورتــه، ويجب على المشــاور أن لا يخفي حالــه، بــل يــذكر المساوىء الّتي فيه بنيّة النّصيحة..

وخامســها أن يكــون مجــاهرا بفســقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة النّـاس، وأخـذ المكس، وجبايـة الأموال ظلما، وتولّي الأمور الباطلة، فيجوز ذكـره بمـا يجـاهر بـه، ويحرم ذكره بغيره من العيـوب، إلّا أن يكـون لجـوازه سـبب آخـر ممّا ذكرناه.

وسادسـها التّعريف، فـإذا كـان الإنسـان معروفـا بلقب؛ كـالأعمش والأعـرج والأصـمّ، والأعمى؛ والأحـول، وغـيرهم جـاز تعريفهم بذلك؛ ويحرم إطلاقه على جهة النّقص؛ ولو أمكن تعريفـه بغير ذلك كان أولى.

فهذه ستّة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليه؛ ودلائلها من الأحاديث الصّحيحة مشهورة(1).

قلنــا: عرفنــا الثــالث.. فحــدثنا عن **الرابــع**.. حــدثنا عن **البهتان**(2).

قـال المـاوردي: لقـد ذكـره الله تعـالى، فقـال: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْـتِبْدالَ زَوْجٍ مَكـانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْـداهُنَّ قِنْطـاراً فَلا تَأْخُـذُوا مِنْـهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِينـاً (20) وَكَيْـفَ تَأْخُذُونَـهُ وَقَـدْ أَفْضـى بَعْضُـكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَـذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقـاً غَلِيظـاً (21) (النسـاء)، وقال: وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيمـاً (111) وَمَنْ يَكْسِـبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمـاً ثُمَّ يَـرْمِ بِـهِ بَرِيئـاً فَقَـدِ

1() انظر: الزواجر لابن حجر الهيثمي (383- 384).

2() البهتـان: كـذب يبهت سـامعه ويدهشـه ويحيّـره لفظاعتـه، وسـمّي بـذلك لأنّـه يبهت أي يسكت لتخيّل صـحّته، ثمّ ينكشـف عنـد التّأمّـل، وهـو أفحش من الكـذب، وإذا كـان بحضـرة المقول فيه كان افتراء، وقيل: كلّ ما يبهت لـه الإنسـان من ذنب وغـيره (انظـر: النهايـة في غريب الحديث والأثر:1/ 165)

احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (112) (النساء)، وقال: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (58) (الأحزاب)

وأخبر عمن سبقنا من الأمم، فقال: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً (156) (النساء)

وقال عما وقع في حادثة الإفك: وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (16) (النور)

قلنا: أليس البهتان هو الكذب على الآخرين؟

قال الماوردي: أجل.. وقد عرفه رسول الله بذلك فقال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه، فقد بهتّه)[1]

وعن عليّ بن أبي طالب قال: دعاني رسول اللّه فقال: (إنّ فيك من عيسى مثلا، أبغضته يهود حتّى بهتوا أمّه، وأحبّته النّصارى حتّى أنزلوه بالمنزل الّذي ليس به) ألا وإنّه يهلك فيّ اثنان، محبّ يقرّظني بما ليس فيّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني، ألا إنّي لست بنبيّ، ولا يوحى إليّ، ولكنّي أعمل بكتاب اللّه وسنّة نبيّه ما استطعت، فما أمرتكم من طاعة اللّه فحقّ عليكم طاعتي فيما أحببتم وكرهتم)[2]

وأخبر عن عقوبة من يقع في البهتان، فقال: (من ذكر امرأ بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه اللّه في نار جهنّم حتّى يأتي بنفاد

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه أحمد.

ما قال فيه)(1)

قلنا: عرفنا الرابع.. فحدثنا عن **الخامس**.. حدثنا عن **شهادة الزور**(2).

قـال المـاوردي: شـهادة الـزور هي قمـة الخبـائث المرتبطـة بالأعراض، ولذلك قرنها الله تعالى بالشرك به، فقال : ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْـدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعـامُ إِلَّا مـا يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفـاءَ لِلَّهِ غَيْـرَ مُشْـرِكِينَ بِـهِ وَمَنْ يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمـا خَـرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَـحِيقٍ (31) (الحج)

وأخــبر تعــالى أن شــرك المشــركين بعــد أن اتضــحت لهم الحقائق شهادة زور، قال تعالى : وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِنْ هَـذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَـوْمٌ آخَـرُونَ فَقَـدْ جـاؤُ ظُلْمـاً وَزُوراً (4) (الفرقان)

ولـذلك فـإن من صـفات المؤمـنين الأساسـية عـدم شـهادة الزور، قـال تعـالى : وَالَّذِينَ لا يَشْـهَدُونَ الـزُّورَ وَإِذا مَـرُّوا بِـاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (72) (الفرقان)

وفي الحديث قال النّبيّ : (ألا أنبئكم بـأكبر الكبـائر (ثلاثـا)؟) قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: (الإشراك باللّه، وعقـوق الوالـدين- وجلس وكان متّكئا، فقال-: ألا وقول الزّور). قال: فما زال يكرّرها حتّى قلنا: ليته سكت)(3)

وقال: (من لم يدع قول الـزّور والعمـل بـه فليس للّـه حاجـة في أن يدع طعامه وشرابه)(4)

---

(1) رواه الطبراني بإسناد جيد.

(2) عرفها القرطبيّ بقوله: (شهادة الزّور هي الشّهادة بالكذب ليتوصّل بها إلى الباطـل من إتلاف نفس أو أخذ مال أو تحليل حرام أو تحريم حلال)

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) رواه البخاري.

وروي أنّ امـرأة قـالت: يـا رسـول اللّـه أقـول: إنّ زوجي أعطاني ما لم يعطني؟ فقال رسول اللّه : (المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)(1)

وروي أنّ النّـبيّ قـام خطيبـا فقـال: (أيّهـا النّـاس، عـدلت شـهادة الـزّور إشـراكا باللّـه) ثمّ قـرأ رسـول اللّـه : فَـاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) (الحج)(2)

قال رجل منا: لم حظي التحـذير من شـهادة الـزور كـل هـذا الاهتمام من التوجيهات القرآنية والنبوية؟

قال الماوردي: لأن لأصل في الشّهادة أن تكون سندا لجـانب الحـقّ، ومعينـة للقضـاء على إقامـة العـدل، والحكم على الجنـاة الّـذين تنحـرف بهم أهـواؤهم وشـهواتهم، فيظلمـون أو يبغـون، أو يأكلون أموال النّاس بالباطل، فإذا تحوّلت الشّـهادة عن وظيفتهـا، فكانت سـندا للباطـل، ومضـلّلة للقضـاء، حتّى يحكم بغـير الحـقّ، استنادا إلى ما تضمّنته من إثبات، فإنّها تحمل حينئـذ إثم جريمـتين كبريين في آن واحد.

الجريمة الأولى: عدم تأديتها وظيفتها الطّبيعيّة الأولى.

الجريمة الثّانية: قيامها بجريمة، تهضـم فيهـا الحقـوق، ويظلم فيها البرآء، ويستعان بها على الإثم والبغي والعدوان(3).

المنع:

قلنا: عرفنا الثالث.. فحـدثنا عن الرابـع.. حـدثنا عن العـدوان بالمنع.

قال الماوردي: لقد أشار رسـول اللـه إلى هـذا الـركن من أركان العدوان في قوله:(ما آمن بي من بات شبعان وجاره جـائع

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

3() الأخلاق الإسلامية للميداني:1/ 546.

إلى جنبه وهو يعلم بـه)[1]، وقولـه:(أيمـا أهـل عرصـة بـات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله)[2]

بل نص القرآن الكريم على هـذا الـركن في مواضـع مختلفـة بصـيغ مشـددة تـدل على أن الأمـر ليس موكـولا لرغبـات النـاس، وإنما هو واجب من واجبات الدين، فلا يصح أن يموت الناس جوعا في نفس الـوقت الـذي تمتلئ يـه خـزائن الكثـيرين، ولـو دفعـوا الزكاة.

فالواجب هو إغناء المحتاجين بأدنى ما يجب إغناؤهم به، ومـا الزكـاة إلا وسـيلة لـذلك، إن كفت فبهـا، وإن لم تكـف وجب في أموال الجميع ما يكفيهم.

والقرآن الكريم يحض على هذا ويصرح به ويشـير إليـه، قـال تعالى : كُـلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَـبَتْ رَهِينَـةٌ (38) إِلَّا أَصْـحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَـاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْـرِمِينَ (41) مَـا سَـلَكَكُمْ فِي سَـقَرَ (42) قَـالُوا لَمْ نَـكُ مِنَ الْمُصَـلِّينَ (43) وَلَمْ نَـكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِـينَ (45) وَكُنَّا نُكَـذِّبُ بِيَـوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) (المدثر)

فقد اعتبر تعـالى عـدم إطعـام المسـاكين من الجـرائم الـتي تسبب الدخول في جهنم، بل تقرن هذه الجريمة بترك الصـلاة، ثم تقدم على التكذيب بالدين، ثم يتوعدون بعدم نفع الشافعين فيهم.

بل لم يعف القرآن الكريم من هذا الـواجب حـتى العامـة من الناس الذين لا يملكون ما يطعمون غيرهم، لأنه لم يأمر بالإطعـام فقط، بل أمر بالحض على الإطعام، ليشمل هذا الأمر الجميع، قال تعالى : كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُـونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّـونَ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ (18) وَتَـأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَـالَ حُبًّا جَمًّا (20) (الفجر)

وقـال تعـالى يـذكر موقفـا من مواقـف القيامـة الشـديدة :

---

[1] البزار، والطبراني في الكبير عن أنس.

[2] مسلم عن ابن عمر.

 خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37) (الحاقة)

بل نجد هذا في سورة كاملة تكاد تكون خاصة بهذا الجانب يعتبر من لا يحض على طعام المسكين مكذبا بالدين، قال تعالى: أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7) (الماعون)

الخذلان:

قلنا: عرفنا الرابع.. فحدثنا عن الخامس.. حدثنا عن العدوان بالخذلان[1].

قال الماوردي: لقد أشار الله تعالى إلى هذا الركن من أركان العدوان، فقال: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُما وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) (آل عمران)، وقال: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) (آل عمران)، وقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) (التوبة)، وقال: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ

---

[1] الخذلان: ترك النّصرة ممّن يظنّ به أن ينصر (المفردات 144)

لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (12) (الحشر)

وأشـار رسـول اللـه إليـه في قولـه: (مـا من امـرئ يخـذل مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهـك فيـه من حرمتـه إلّا خذله اللّه في مـوطن يحبّ فيـه نصـرته، ومـا من امـرئ ينصـر مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهـك فيـه من حرمتـه إلّا نصره اللّه في موطن يحبّ فيه نصرته)[1]

وأشار إليه في قوله: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) قالوا: يا رسول اللّه، هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال: (تأخــذ فوق يديه)[2]

وفي قوله: (من أذلّ عنده مؤمن فلم ينصره وهـو قـادر على أن ينصره أذلّه اللّه- عزّ وجلّ- على رؤوس الخلائـق يـوم القيامـة)[3]

وفي قوله: (من أكل برجل مسلم أكلة فإنّ اللّه يطعمه مثلها في جهنّم، ومن كسي ثوبا برجل مسلم فإنّ اللّه يكسوه مثلــه من جهنّم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء، فإنّ اللّه يقوم بـه مقـام سمعة ورياء يوم القيامة)[4]

وفي قوله: (المسلم أخو المسلم لا يظلمـه ولا يسـلمه، ومن كان في حاجة أخيـه كـان اللّـه في حاجتـه، ومن فـرّج عن مسـلم كربة فرّج اللّه عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره اللّه يوم القيامة)[5]

قال رجل منا: فهذا يدل على وجوب نصـرة المـؤمن في كـل

1() رواه أبو داود والطبراني في الأوسط واسناده حسن.

2() رواه البخاري.

3() رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وهو حسـن الحـديث، وفيـه ضـعف، وبقيـة رجالـه ثقات.

4() رواه أحمد وأبو داود.

5() رواه البخاري ومسلم.

المحال؟

قال الماوردي: أجل.. فالتناصر ركن من الأركان الكبرى التي يقوم عليها بنيان المجتمع المسلم.. وقد أشار إلى هذا الركن قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال:72)

ففي هذه الآية الكريمة حض على نصر المؤمنين بعضهم بعضا، فلا يصح أن ينعم المسلم بالأمن في الوقت الذي يصاب إخوانه بكل أنواع البلاء.

ولأجل تحقيق هذا الركن شرع الإسلام الجهاد في سبيل الله، قال تعالى في تبرير الأمر بالجهاد مع كونه إزهاقا للأرواح التي جاءت الشريعة لحفظها:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرا (75)﴾(النساء)

وقد ورد هذا التبرير في مواضع مختلفة، وكلها تنطلق من أن الغرض من القتال في الإسلام ليس المقصود منه التوسع ولا الاستعمار والسيطرة، وإنما المقصد منه نصرة المستضعفين، قال تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(39)﴾ (الحج)، وقال تعالى:﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)﴾ (البقرة)، وقالتعالى:﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217)﴾(البقرة)

الاحتقار:

قلنا: عرفنا الخامس.. فحدثنا عن السادس.. حدثنا عن العدوان بالاحتقار[1].

قال الماوردي: الاحتقار مرض من الأمراض الخطيرة، وهو يجعل المعتدي ينظر إلى غيره كما ينظر إلى الخنافس والبعوض، وقد ذكره الله عن أصناف من الناس جعلهم يستعلون على الرسل وأتباع الرسل، قال تعالى: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27) (هود)، وقال: قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) (الشعراء)

وقد أجاب الرسل أقوامهم المزدرين بقولهم: وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) (هود)

ولهذا، فقد نهيت هذه الأمة عنه، كما نهي عنه قبلها سائر الأمم، قال : (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد اللّه إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التّقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرّات (بحسب امرىء من الشّرّ أن يحقر أخاه المسلم، كلّ المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه)[2]

وقال: (من سمّع النّاس بعمله سمّع اللّه به سامع خلقه وصغّره وحقّره)[3]

---

[1] الاحتقار: هو أن يستصغر شخص شخصا آخر أو ما يصدر عنه من معروف يسديه أو هديّة يعطيها.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح وكذا البيهقي.

وقال: (يا نساء المسلمات، لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة)[1]

وقال: (إنّ من أربى الرّباء الاستطالة في عرض المسلم بغير الحقّ)[2]

وعن أبي مسعود البدريّ قال: لمّا أمرنا بالصّدقة كنّا نتحامل[3]، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إنّ اللّه لغنيّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلّا رئاء، فنزلت : الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) (التوبة)[4]

ومن هذا الباب ما ورد في النصوص المقدسة من النهي عن **الاستهزاء**.. وهو نوع من الاحتقار الخفي، وقد ذكر الله تعالى أنه صفة أعداء الرسل التي قابلوا بها أقوامهم، قال تعالى: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (32) (الرعد)

وقال: وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (11) (الحجر)

وأخبر أنه صفة المنافقين، فقال: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (66) (التوبة)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أحمد وأبو داود.

3() نتحامل: أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة.

4() رواه البخاري ومسلم.

وأخبر أنه صفة الغافلين، قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (7) (لقمان)

وقد نهي المؤمنون لذلك من صحبة هؤلاء المستهزئين، أو مجاراتهم في سلوكهم، قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (58) (المائدة)

وقد أخبر الله تعالى عن الجزاء الذي ينتظر المستهزئين مهما اختلف صنفهم، فقال تعالى: وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (34) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37) (الجاثية)

وقال: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (106) (الكهف)

ومن هذا الباب ما ورد في النصوص المقدسة من النهي عن **الشماتة** [1].. وهي الفرح بما يصيب الغير من المصائب، وقد اعتبر الله ذلك صفة المنافقين، فقال: إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120) (آل عمران)

1() قال الرّاغب: الشّماتة الفرح ببليّة من تعاديه ويعاديك (المفردات: 273)، وقال القرطبيّ: الشّماتة: السّرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدّين والدّنيا (الجامع لأحكام القرآن (7/ 291)

وقال: إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) (التوبة)

وكان النّبيّ يتعوّذ من جهد البلاء، ودرك الشّقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء[1].

وعن المعرور بن سويد، قال: رأيت أبا ذرّ وعليه حلّة وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك؟ قال: فذكر أنّه سابّ رجلا على عهد رسول اللّه ، فعيّره بأمّه، قال: فأتى الرّجل النّبيّ فذكر ذلك له، فقال النّبيّ : (إنّك امرؤ فيك جاهليّة، إخوانكم وخولكم جعلهم اللّه تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه ممّا يأكل، وليلبسه ممّا يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم فأعينوهم عليه)[2]

وقد أخبر عن العقوبة التي تنتظر الشامتين، فقال: (لا تظهر الشّماتة لأخيك فيرحمه اللّه ويبتليك)[3]

الهجر:

قلنا: عرفنا السادس.. فحدثنا عن السابع.. حدثنا عن العدوان بالهجر.

قال الماوردي: الهجر هو مقاطعة المسلم لأخيه، وعدم اهتمامه به أو حرصه عليه، وهو من أعظم المحرمات كما تدل على ذلك النصوص المقدسة الكثيرة، ففي الحديث قال رسول الله : (تفتح أبواب الجنّة يوم الاثنين، ويوم الخميس. فيغفر لكلّ عبد لا يشرك باللّه شيئا إلّا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء. فيقال: أنظروا هذين حتّى يصطلحا. أنظروا هذين حتّى يصطلحا.

1() رواه البخاري ومسلم.. قال سفيان (راوي الحديث): (الحديث ثلاث، زدت أنا واحدة لا أدري أيّتهنّ هي)

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه.

أنظروا هذين حتّى يصطلحا)(1)

وقال: (لا تحـلّ الهجـرة فـوق ثلاثـة أيّـام، فـإن التقيـا فسـلّم أحدهما فردّ الآخر اشـتركا في الأجـر، وإن لم يـردّ بـرىء هـذا من الإثم، وبـاء بـه الآخـر، وإن ماتـا وهمـا متهـاجران لا يجتمعـان في الجنّة)(2)

وقال: (لا يحلّ لرجل أن يهجر أخاه فـوق ثلاث ليـال، يلتقيـان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الّذي يبدأ بالسّلام)(3)

وقـال: (لا يحـلّ لمسـلم أن يهجـر مسـلما فـوق ثلاث ليـال، فإنّهما ناكبان عن الحقّ ما داما على صرامهما وأوّلهما فيئـا يكـون سبقه بالفيء كفّارة له، وإن سلّم فلم يقبل وردّ عليه سـلامه ردّت عليه الملائكة، وردّ على الآخر الشّيطان، فإن ماتـا على صـرامهما لم يدخلا الجنّة جميعا أبدا)(4)

وقال: (لا يحلّ لمسلم أن يهجـر أخـاه فـوق ثلاث، فمن هجـر فوق ثلاث فمات، دخل النّار)(5)

وقال: (لا يكون لمسلم أن يهجر مسلما فوق ثلاثة، فإذا لقيـه سلّم عليه ثلاث مرار كلّ ذلك لا يردّ عليه، فقد باء بإثمه)(6)

وقال: (تعرض الأعمال يوم الاثـنين والخميس: فمن مسـتغفر فيغفر له، ومن تائب فيتـاب عليـه ويـردّ أهـل الضّـغائن بضـغائنهم حتّى يتوبوا)(7)

1() رواه مسلم.

2() رواه الطبراني في الأوسط والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه أحمد، وأبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه

5() رواه أبو داود.

6() رواه أبو داود.

7() رواه الطبراني في الأوسط.

وقال: (من هجر أخاه سنة، فهو كسفك دمه)[1]

وعن معاوية القشيريّ قال: قلت: يا رسول اللّه، ما حقّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبّح، ولا تهجر إلّا في البيت)[2]

1() رواه أبو داود.

2() رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه.

الخاتمة

بقينا مع الماوردي أياما معدودات يحدثنا فيها عن مرض (العدوان)، ويستعمل في التنفير عنه كل ما آتاه الله من العلم والحكمة.. وبعد أن رأى أن المحيطين به قد فقهوا عنه ما أراد أن يبلغهم إياهم ويدربهم عليه، طلب منا أن نسير إلى صاحب المدرسة في ساحتها..

وهناك رأيت من العجب ما لم أكن أتصوره..

لقد كان صاحب المدرسة محسن بن فيض الله جالسا على كرسي، وبجنبه صرر كثيرة من المال..

عندما اجتمعنا إليه قال: مرحبا بكم.. لن أطيل عليكم الحديث، فسوقكم ينتظركم.. ولهذا سأعجل بإخباركم بنتيجة المسابقة.

لا أكتمكم أني في بداية المسابقة كنت أتصور أن الفائزين منكم سيكون عددا محدودا.. وقد وضعت لذلك الحد الأدنى من الأسئلة.. وحددت الحد الأدنى من الإجابة عليها..

لكني اكتشفت عظم خطئي.. فقد كانت تصلني من المراقبينن الذي أرسلهم كل حين في صفة زبائن ومشترين من الأخبار ما ملأ قلبي سرورا..

ولهذا، فقد جمعتكم اليوم لأوزع عليكم من المال ما وعدتكم به.. فاقبلوه مني فهو حقكم..

قال ذلك، ثم طلب من بعض مرافقيه أن ينادي على رجل من أهل السوق، فنادى عليه، وحضر الرجل، والعجب أنه رفض أخذ المال، بل صاح بقوة: لقد تعلمنا في هذه المدرسة حرمة المسألة، وتعلمنا أن نعتمد على ما أعطانا الله من القوى، وأن نقنع بما آتانا الله من فضله.. وفوق ذلك تعلمنا من السلوك الرفيع ما سينزع من سوقنا حلة الحزن التي كان يلبسها.

قال آخر: صدقت.. لقد اكتشفنا السبب الأكبر الذي كان يكمن وراء فقرنا وفقر سوقنا..

قال آخر: لقد عرفنا المحركات الخبيثة التي كانت تمدنا بالرذيلة، وكانت هي المدد الذي أمد به محق السوق، ومحق حياتنا.

قال آخر: ليتك بدل أن تمدنا بما مددتنا به من فضلك السابق مددتنا بالنصح والمعرفة والعلم.. فلا يحمي المال كالعلم، ولا يحمي الحياة كالمعرفة، ولا يحمي البركة كالنصيحة.

قال آخر: ماذا نريد بالمال.. لقد مننت علينا بما هو أعظم.. ونحن لا نطلب منك سوى أن تأذن لنا في أن نبقى تلاميذ لهذه المدرسة ولأساتذتها الكبار..

قال آخر: بل نطلب منك أن تأذن لنا لنسير في البلدان لنبشر بها وبالتعاليم السامية التي تدعو إليها.

بعد أن سمع محسن هذه الكلمات العذبة التي تفوهت بها تلك الألسنة المضمخة بعطر الإيمان، قال: شكرا على هذه الكلمات، وأسأل الله أن يبارك لكم في حياتكم.. ولكني مع ذلك لن أعود بهذا المال إلى بيتي.. بل سأتركه لهذه المدرسة ولكل من يتتلمذ فيها.

هذا الكتاب

تهدف هذه الرواية إلى بيـان أثـر الاختيـار الإنسـاني للخطيئـة فيمـا يحصـل لـه من مـآس وآلام ومصـائب.. وهي تعـبر عن ذلـك بتعبير رمزي عن طريق سوق ممتلئة بكـل أنـواع الفقـر والحاجـة، يراها المؤلف ـ تلميذ السلام ـ فتثور في نفسه ألوان الصراع حول سر ذلك، ومدى انسجامه مع الرحمة والعدالة الإلهية..

لكن معلم السـلام، وعـبر مـا يرسـله لتلميـذه من الوسـائط يبرهن له على أن كل مـا حصـل لأهـل السـوق من آلام هـو ثمـرة اختياراتهم.

ثم يأخذ بيده إلى مدرسـة تـدرب أهـل السـوق على التخلص من الآثـام الـتي حـالت بينهم وبين تـنزل البركـات عليهم.. وهنـاك يعرف تلميذ السلام، وأهل السـوق، سـبب مـا حـل بهم من محـق وآلام.